نما للأبحاث المعاصرة

تحليل مضمون

خطاب المجتمع الثوري

كانون الأول – ديسمبر / ٢٠٢٠

NMA FOR CONTEMPORARY RESEARCH

"مركز نما للأبحاث المعاصرة"

مؤسسة بحثية مستقلة غير ربحية تُعنى بتقديم الدراسات والأبحاث السياسية والاقتصادية والاجتماعية حول القضية السورية، لإسناد صناع القرار والمجتمع بالمعلومات والتحليلات العلمية المساهمة في اتخاذ القرارات العقلانية، وزيادة الوعي وتحقيق التنمية السياسية للوصول إلى تمكين المجتمع.

تأسس المركز في أيلول 2019 في الشمال السورية كمؤسسة ريادة في تقديم الدراسات والأبحاث المعمقة لصناعة سياسات أكثر فاعلية من خلال استجلاب المعلومة الصحيحة وإخضاعها لعملية تحليلية علمية للوصول إلى النتائج المنطقية التي يمكن الاستناد إليها في عملية صناعة القرار الرشيد.

تاريخ النشر: كانون الأول-ديسمبر/2020

الموقع الإلكتروني
nmaresearch.com

البريد الإلكتروني
info@nmaresearch.com

جميع الحقوق محفوظة © مركز نما للأبحاث المعاصرة

جدول المحتويات

ملخص تنفيذي 3

المقدمة: 6

أهمية الدراسة: 7

إشكالية البحث: 7

منهج البحث: 7

توطئة: 8

أهمية الإعلام في الحروب: 13

الدعاية الإسرائيلية: 15

نزال غير متكافئ: 18

جيش إلكتروني، أم طابور خامس، أم هي طباع موروثة؟ 22

اللعب في ملعب الخصم: 26

أولا- العمالة ومركزية العلاقة مع إسرائيل في الثقافة السورية 26

ثانيا-المؤامرة 31

الخطاب الموجه إلى الداخل: 37

الخطاب البيني: 42

النقد في المحرمات 44

ماهي النتائج؟ 47

نظم اعتقاد قابلة للتغيير 50

الخاتمة والنتائج والتوصيات: 53

قائمة المراجع: 56

الروابط الإلكترونية: 57

ملخص تنفيذي

تولي الأطراف المتحاربة الجانب الإعلامي مزيدا من الأهمية خلال الحرب، إلا أن هذا لم يحصل من قبل الشخصيات والكيانات التي تصدرت المشهد الثوري، رغم الحاجة الملحة للتغيير الثقافي ولتوجيه الشارع والتواصل مع جمهور الثورة والتعبير عن مواقفها وبرامجها ونشاطاتها والدفاع عنها في مواجهة افتراءات الطرف الآخر. لذلك كان الخطاب الثوري ارتجاليا يفتقر إلى التنسيق ويفتقر إلى المغزى الذي يفترض أن يحتويه، وتكلمت الأغلبية منطلقة من ثقافتها الشخصية التي هي ثقافة معظم السوريين، والتي هي أيضا: ثقافة مكتسبة كانت السلطة قد شكلتها وصاغت معظم مفرداتها، وربما لا يكون من المبالغة القول إن السلطة كانت قد اختارت للسوريين حتى نمط التفكير. لذلك، كان الخطاب الثوري في جانب كبير منه مريحا جدا بالنسبة للنظام السوري، ومن خلال تحليل مضمون بعض جوانب هذا الخطاب يتبين أن قسما كبيرا من هذا الخطاب يمكن تصنيفه على أنه خطاب رديف لخطاب النظام السوري. فعلى صعيد الخطاب الموجه إلى الخارج يمكن القول إن هذا الخطاب، كانت فحواه استعداء الجميع وهو عكس المطلوب في هذا النوع من الخطاب. أما بالنسبة للخطاب الموجه إلى الداخل فلم يكن سوى توحيدا لجبة الخصم وزيادة في حدة الانقسام. ولم يكن الخطاب البيني سوى مدعاة لمزيد من الشرذمة والفرقة. وكذلك الأمر فيما يخص الحرب النفسية، فهي حرب نفسية على الذات أكثر منها حربا موجهة إلى الخصم.

وتتناول الدراسة بعض المعتقدات المنبثقة عن نظرية المؤامرة، والمروج لها من قبل النظام السوري، والتي أدى الإيمان بها والبناء عليها إلى مزيد من الفشل والإحباط واليأس من الخلاص. كما تناولت الدراسة قابلية التخلي عن بعض نظم الاعتقاد السلبية لدى الشعب السوري، وتوصلت إلى أن هذا الأمر ممكن بشرط وجود استراتيجية واضحة بهذا الخصوص.

Executive summary

The warring parties give more importance to the media during the war, but this did not happen by the personalities and entities that took the lead in the revolutionary scene, despite the urgent need for cultural change, to direct the street, communicate with the revolution's audience, Express and defend its positions, programs and activities in the face of the other party's fabrications. Therefore, the revolutionary discourse was improvised, lacked coordination and lacked the meaning that it was supposed to contain,The majority spoke their own culture, which is the culture of most Syrians, It is also: an acquired culture shaped by the authority and shaped most of its vocabulary, and it may not be an exaggeration to say that the authority chose even the way of thinking of the Syrians. Therefore, the revolutionary discourse was largely comfortable for the Syrian regime, and by analyzing the content of some aspects of this discourse, it becomes clear that a large part of this discourse can be classified as a speech synonymous with the discourse of the Syrian regime. On the level of discourse directed abroad, it can be said that this speech was intended to antagonize everyone, and it is the opposite of what is required in this type of speech. As for the discourse directed at the inside, it was nothing but a consolidation of the opponent's weaknesses and an increase in the severity of the division. The inner talk was nothing but a cause of further division and division. The same applies to psychological warfare, it is a psychological war on the self, not a war against an opponent.

The study dealt with some of the beliefs emanating from the conspiracy theory promoted by the Syrian regime, in which belief in it and building upon it led to more

failure, frustration and despair from salvation. The study also examined the ability to reject some negative beliefs of the Syrian people, and concluded that this is possible provided there is a clear strategy in this regard.

إن النقد سواء اتخذ شكل نقد الإنسان لذاته أو لمجتمعه أو لأمته هو دليل قاطع على عمق وشائج الصلة والإخلاص والمحبة بين الناقد وبين من ينقده.

(طارق الحجي)

المقدمة:

بدأت الثورة السورية كغيرها من ثورات الربيع العربي ثورة سلمية سلاحها الوحيد حناجر المتظاهرين، ولافتاتهم التي خطوا عليها مطالبهم وأشياء أخرى، وكاميرا الجوال التي صورت المظاهرات والانتهاكات التي كانت تأتي من قبل القوى الأمنية التابعة للنظام السوري. وأمام هذه الانتهاكات التي يمكن وصفها بالوحشية، لم يكن أمام ثوار سوريا إلا خيارين لا ثالث لهما؛ فإما الاستسلام والهزيمة، وإما الدفاع عن النفس. وبالتالي، التحول بالثورة من مرحلة السلمية إلى مرحلة العنف المسلح، أو الكفاح المسلح. وكانت البداية عبارة عن حمل بعض البنادق من قبل بعض الثوار لحماية المتظاهرين السلميين، لكن المسار الذي اتخذته الأحداث فيما بعد وصل إلى مرحلة لا يمكن تسميتها إلا حربا، حربا بكل ما تعنيه الكلمة.

تعتبر الحرب تحقيق للأهداف بالقوة؛ مادية كانت أو معنوية، وهي أحد وجهي العلاقات الإنسانية المتمثل في السلم والحرب، وهي حركة من الحركات الإنسانية والتصرفات البشرية لإشباع الحاجات وتحقيق الغايات.

والحرب كنشاط لا يخضع تسييرها للصدفة أو الارتجال والعشوائية، بل هي كغيرها من الحالات، تسير وتدار وفقا لتقنيات تنظيمية، واستراتيجيات إدارية، وما مصطلح "إدارة الحرب" أو "إدارة الأزمة" إلا دليل على ذلك. فإدارة الحرب العسكرية تستند إلى منظومة متكاملة من الأعمال والعمليات المرتبطة بالتخطيط العسكري، والتنظيم العسكري، والموارد البشرية، وإدارة العتاد العسكري، وتسيير العمليات العسكرية، إلى غير ذلك من التدابير والإجراءات اللازمة لإدارة أعمال الحرب. أما إدارة حروب الدعاية والإعلام والحرب النفسية والتي هي مادة هذه الدراسة، فكذلك تعتمد على مجموعة منسجمة من الإجراءات في إدارة أعمالها وعملياتها

بالاستناد على الاستراتيجية الإعلامية. وكلا الاستراتيجيتين تعتمد على التنظيم المحكم والتخطيط الفعال. فهل كان لدى الجهات التي تصدرت الصفوف الأولى في الثورة استراتيجية محددة؟ وهل كان لدى الذين تفاعلوا مع الأحداث عبر التصريحات أو الكتابات وعي بقيمة الكلمة وطبيعة الخطاب المطلوب أثناء الحرب؟

أهمية الدراسة: انطلاقا من مقولة: " من لا يعرف أخطاءه، لن يجد ما يصححه" تسعى هذه الورقة البحثية إلى تقييم الخطاب العام للمجتمع الثوري السوري، وتسلط الضوء على واحدة من نقاط ضعف الثورة السورية. وبالتالي، تصحيح وتلافي بعض الأخطاء إن أمكن، أو عدم تكرار نفس الأخطاء مستقبلا كحد أدنى.

إشكالية البحث: "أثبت الواقع خلال السنوات المنصرمة من الثورة، وجود خلل واضح في إستراتيجية الخطاب الذي اعتمد من قبل الثوار، بحيث بدا خطاب الثورة في بعض جوانبه وكأنه إعلام رديف لإعلام النظام".

منهج البحث:

ستعتمد الدراسة على كل مما يلي:

1- منهج تحليل المضمون، فهو المنهج الذي نشأ مع الدراسات الإعلامية ومازال يرافقها حتى الآن، وإن كان قد امتد إلى الدراسات الاجتماعية. (فهو وسيلة للقيام باستنتاجات عن طريق التحديد المنظم والموضوعي لسمات معينة في الرسائل الاتصالية)
2- المنهج المقارن الذي يعتمد على المقارنة في دراسة الظاهرة حيث يبرز أوجه الشبه والاختلاف فيما بين ظاهرتين أو أكثر.

توطئة:

في إطار عملية خلق (السيستم) تطور النخب الحاكمة ممارسات تخلق على المدى البعيد بيئة معينة تقيد من قدرة غيرهم على إحداث تغيير لاحق.

(دي ماجيو)

يقول مالك بن نبي: هناك أيضا أنواعا من الجراثيم الناقلة للأمراض الاجتماعية، وهذه الجراثيم الخاصة أفكار معدية، أفكار تهدم كيان المجتمعات أو تعوق نموها[1]. مثل هذه الأفكار تشكل جزءا لا يتجزأ من الثقافة العربية ومفرداتها؛ منها ما له علاقة ببنية العقل العربي، ومنها ما هو مستجد كرسته أنظمة الاستبداد، ورغم أن الثقافة في البلدان العربية تتشارك في السمات العامة، إلا لكل شعب من شعوب البلدان العربية بعض السمات الخاصة في طريقة تفكيره، وبعض مفردات ثقافته الخاصة. ويعود هذا إلى بعض الفوارق في بنية نظام الحكم وأيديولوجيته الخاصة، وبعض الظروف التي تفرضها البيئة الإقليمية، أو البيئة الداخلية.

في دراسته "تكوين العقل العربي" يربط الجابري بين اللغة والفكر؛ معتبرا خضوع اللغة العربية لمقاييس عصر التدوين أنها ظلت وماتزال تنقل إلى أهلها عالما بعيدا عن عالمهم، عالما بدويا يعيشونه في أذهانهم، بل في خيالهم[2]. أي، معتبرا أن اللغة العربية بعد عملية التقعيد التي خضعت لها أصبحت إحدى أهم معوقات العقل العربي. وفي سياق توضيحه لهذه الفكرة يذكر الجابري: فالأسكيمو مثلا يتوفرون على عدد هائل من الكلمات التي تخص الثلج: أنواعه، تحولاته، تراكمه ... إلخ، الشيء الذي يعني أن الأسكيمو يتوفرون من خلال لغتهم عن صورة لعالم الثلج أوسع وأدق وأغنى من تلك التي يتوفر عليها سكان المناطق الحارة[3]. ومن خلال نفس السياق، يمكن القول إن السوريين ومن خلال خضوعهم لنظام حكم

[1] - مالك بن نبي، مشكلات الحضارة مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر بدمشق، 2000م، ط4، ص 14.

[2] - د. محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009، ط10، ص 88.

[3] - د محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص 78.

اتخذ من الصراع مع إسرائيل موردا لتدعيم شرعيته، ولتدعيم تسلطه في آن واحد؛ أصبحت لديهم بعض المفردات وبعض الأفكار التي كرسها النظام الحاكم بكثرة التكرار والتلقين عبر إعلامه ذي الاتجاه الواحد تميزهم عن غيرهم من باقي الشعوب العربية. فعلى سبيل المثال، ربما لا يستطيع السوري أن يجادل في مسألة أي كان نوعها دون حشر إسرائيل في الموضوع، كما لا يمكن أن تغيب عن حديثه مفردات مثل: خيانة، عمالة، تخاذل، بيع، شراء، تآمر ... إلخ. وهنا لا بد من الإشارة إلى فارق مهم بين المثال السوري ومثال الأسكيمو؛ فبينما تعبر مفردات الثلج لدى الأسكيمو عن صورة لعالم الثلج أوسع وأدق، لا تعبر المفردات السورية عن معرفة بعالم الصراع أوسع وأدق، بل جعلت طريقة تفكيرهم مغلقة جدا وذات اتجاه واحد، فالمفردات السورية لم تكن نتيجة الخبرة أو التطور الثقافي المواكب لحالة الصراع، وإنما غرست في قاموسهم غرسا. ولكن هذا لا ينفي أنها استقرت في هذا القاموس وأصبحت ملهمة لكثير من الأفكار المنبثقة عنها.

في المجتمعات التي تسود فيها ثقافة الخشية من السلطة وتفضيل الصمت، وتعليم الأبناء على ذلك، سنجد أنّ الثقافة السياسية قائمة على فكرة أنّ السلطة هي الأعلم بمصالح البلاد السياسية والاقتصادية، وأنّ الأفراد أو الجماعات أو المجتمع، عليهم أن يتماهوا مع فهم السلطة للواقع السياسي، وهو ما يفتح المجال أمام السلطة لإعادة تشكيل الوعي والثقافة في المجتمع. خاصة وأن السلطة في مثل هذه المجتمعات تعتبر جهاز الإعلام أحد أهم أذرعها للتحكم والسيطرة. وعليه، يكون الوعي مُؤطَّراً، من قبل أيديولوجياتٍ أو أنظمةٍ تسلّطية، تَفرِض على الأفراد والمجتمعات، حدوداً لوعيهم، أي تَفرِض مُدخلاتٍ مُحدَّدةٍ مُسبقاً، وأدوات تحليلٍ يتمّ تفكيكها وإعادة تركيبها وفقاً لهذا النمط، بما ينتج وعياً مؤدلجاً يخدم أصحابه.

وحين نتحدث عن الوعي السياسي، فإنّنا نشير إلى استخدام الثقافة السياسية التي يمتلكها المجتمع، في فهم المحيط السياسي، بمعنى أنّ الثقافة هنا، هي من يُحدّد آليّة تشكُّل الوعي أيضاً، وهي مجموع ما يمتلك الإنسان من عاداتٍ وتقاليد وأديانٍ وتاريخٍ ولغاتٍ وتجارب وسواها. فالوعي السياسي يقع تحت تأثير هذه الثقافة أولاً، وهي المؤثر الأكبر، فحين تكون

ثقافة المجتمع منغلقةً على ذاتها، غير قابلةٍ لاستيعاب مُدخلاتٍ جديدة، أو أنّها ثقافةٌ عنصرية، أو أنّ غالبية المجتمع أميّ/شبه أميّ، فإنّنا سنجد وعياً سياسياً مُشوّهاً يعكس هذه الصورة، ويُكرّسها ليُعيد إنتاج وعيٍّ سياسيٍ مشوّه[4]. والمتتبع لبعض وسائل الإعلام في العالم العربي والإسلامي، يلاحظ أنها تتقوى من خلال استنهاض المخزون الإدراكي لجمهورها، وتحفيزه على استخدام خارطته الإدراكية، التي رسمت بداخل عقله على مدى عقود، أو تم بناؤها من طرف هذه الوسائل وفق إستراتيجية مدروسة، إلى الحد الذي تجعله لا يستطيع الرؤية خارج المجال الذي تحدده هذه الخريطة، بل وتصبح مرجعاً لصاحبها يحكم بناء عليها على الوقائع والأحداث.

مهما يكن، وفي نهاية المطاف، سواء كنا نتحدث عن الثقافة، أو عن الأفكار، أو عن طبيعة الوعي؛ فإن الإفصاح أو التعبير عن كل ما سبق يتم من خلال اللغة، فاللغة هي الوسيط الذي تدار من خلاله الأنشطة الاجتماعية.

إن السياسة نشاط اجتماعي، وهي بالتالي تدار من خلال وسيط اللغة، سواء كانت مكتوبة في كتب، ونشرات وبيانات ... أو يتغنى بها في المظاهرات والمسيرات. للوهلة الأولى، تبدو اللغة كشيء بسيط؛ إنها نظام تعبير يستخدم رموزا، وهي في هذه الحالة كلمات، لتمثيل أشياء، والتي يمكن أن تتضمن أشياء مادية، ومشاعر، وأفكار، إلخ. ويقتضي ذلك، أن اللغة أساسا سلبية، حيث إن دورها هو أن تعكس الواقع بأكبر قدر ممكن من الدقة ... غير أن اللغة قوة إيجابية وفاعلة أيضا، قادرة على إشعال الخيال وإثارة المشاعر. إن الكلمات لا تعكس فقط الحقائق حولنا، إنها تساعدنا أيضا على تشكيل ما نراه، وبناء موقفنا تجاهه. إن اللغة، في الحقيقة، تساعد على خلق العالم نفسه.

هذه المشكلة خطيرة بشكل خاص في السياسة، لأن اللغة غالبا ما تستخدم ببراعة من قبل من لديهم دافع للتلاعب والإرباك: السياسيون المحترفون. وبما أن اهتمام السياسيين الأول هو الدفاع السياسي، فإن اهتمام السياسيين الأول هو الدفاع السياسي، فإنهم أقل اهتماما

[4] - د. عبد القادر نعناع، دور الوعي السياسي في تطور المجتمعات.
https://www.facebook.com/106990414078834/posts/331918621586011/

بدقة لغتهم عن اهتمامهم بقيمتها الدعائية5. والقيمة الدعائية هذه، بالإضافة الحرب النفسية – باعتبار الحالة تشتمل على حرب - هما المقصودان في هذه الورقة البحثية. أي، ما الذي احتواه خطاب الشارع الثوري من هذين العنصرين، إن صح التعبير، من خلال ما تم طرحه عبر منصات التواصل الاجتماعي ووسائل الإعلام. إنها قراءة نقدية للميديا المجتمعية.

تختلف الممارسة الإعلامية في زمن الحرب عنها في الظروف العادية، وتمتاز بالمزج والخلط بين الإعلام والدعاية والعلاقات العامة والحرب النفسية والتضليل والابتعاد كليا عن مبادئ الموضوعية، وتصبح الممارسة الإعلامية جزءا لا يتجزأ عن الحرب نفسها. ومن هذا المزيج سيتم التركيز على الدعاية والحرب النفسية كوسائل مؤثرة تطلق في قسمها الأكبر من خلال وسائل الإعلام وتستخدم هذه الوسائل للوصول إلى أهدافها التي رسمت لها. والدعاية كما يعرفها الدكتور حامد ربيع: عملية الإثارة النفسية بقصد الوصول إلى تلاعب معين في المنطق، فإذا بنا إزاء استجابة ما كان يمكن أن تحدث لو لم تحدث هذه الإثارة العاطفية. الدعاية بهذا المعنى لا تفترض سوى التلاعب بالمنطق، كما تتجه إلى الصديق فإنها تتجه إلى غير الصديق.6 ويرى علماء النفس الاجتماعي أن الدعاية محاولة إعلامية للتأثير في اتجاهات الناس وآرائهم وسلوكهم، ووسيلتها نشر معلومات وحقائق، وأحيانا أنصاف حقائق أو أكاذيب وفق اتجاه معين، من جانب فرد معين، أو جماعة معينة، في محاولة منظمة للتأثير في الرأي العام.7 والدعاية هي عملية إقناع، وهو نادرا ما يكون صحيحا في جميع عناصره، أو كاذبا في جميع عناصره.8

أما بالنسبة للحرب النفسية، فيعرفها الدكتور حامد ربيع على أنها نوع من القتال لا يتجه إلا إلى العدو، ولا يسعى إلا إلى القضاء على إيمان المستقبل بذاته وبثقته بنفسه. وبعبارة أخرى، هي تسعى لا إلى الإقناع والاقتناع، وإنما تهدف إلى تحطيم الإرادة الفردية. هدفها

[5] - أندرو هيوود، النظرية السياسية، ترجمة: لبنى الريدى، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2013، ص 14.

[6] - د. حامد ربيع، فلسفة الدعاية الإسرائيلية، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، بيروت، 1970، ص 38.

[7] - د. رفيق سكري، الرأي العام والإعلام والدعاية، مكتبة مؤمن قريش، لبنان، 1991، ص 75 – 76.

[8] - د. رفيق سكري، المرجع السابق، ص 77.

أكثر اتساعا من الدعاية، فهي تسعى إلى القضاء على الإرادة.9 والحرب النفسية أصبحت مؤخرا تطبيق لبعض أجزاء علم النفس لمعاونة المجهودات التي تبذل في المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية؛ إنها الحرب من أجل العقول والإرادة. ولذلك فإن الحرب النفسية تأخذ أكثر من بعد واحد:

- فهي تتوجه إلى تقوية مراكزها بالنسبة إلى أنصارها، سواء أكان ذلك بالنسبة إلى الرعايا المدنيين من جانب، أم القوات العسكرية المعدة للقتال الجسدي من جانب آخر.
- تتجه إلى التخريب خلف خطوط العدو.
- تتجه إلى خلق التقارب مع العناصر المحايدة في نطاق الأسرة الدولية.
- تسعى إلى خلق التشتت في نفسية القوى العسكرية المعادية.

هذه الحرب بعد أن كانت وسائل بدائية (كالشتم والصراخ...إلخ) أصبحت تملك أدوات جديدة متطورة لا غنى عنها لشن الحرب النفسية المعاصرة. وهذه الأدوات يمكن تحديدها كما يأتي:

- الدعاية السياسية (إيجاد معارضة بين صفوف العدو).
- الشائعة (خلق البلبلة بين الأعداء).
- غسل المخ.
- الضغط الاقتصادي، أو التلويح بالعقوبات الاقتصادية.
- الدفاع عن الأقليات بغرض استعمالها عند الضرورة.
- التجسس بغرض الحصول على أكبر معلومات عن النظام المعادي بهدف التشهير به10.
- افتعال الأزمات.
- إلقاء الرعب.
- التشكيك بقدرات الخصم.
- التهكم والاستهزاء والسخرية.

[9] - د. حامد ربيع، الحرب النفسية في المنطقة العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1974، ط1، ص 16.

[10] د. رفيق سكري، مرجع سابق، ص 150.

أهمية الإعلام في الحروب:

الانتصار في المعارك ليس هو النجاح التام ..النجاح التام هو أن تكسر مقاومة العدو بدون قتال

(صن تزو)

يقول صلاح نصر عن الجذور التاريخية للحرب النفسية "الحرب النفسية والدعاية كلتاهما قديمة قدم الجنس البشري نفسه لكنهما أخذتا في العصر الحديث طابع التخصص مما جعلهما تبرزان في الأضواء كموضوعين مستقلين"[11]، والدعاية بوصفها سلاحا من أسلحة الحرب النفسية موجودة في أقدم دليل عمل للاستراتيجية العسكرية، إذ يؤكد المفكر الصيني "صن تزو" في القرن الخامس قبل الميلاد في كتاب "فن الحرب" أهمية تدمير إرادة العدو وتجنب الصراع حتى النهاية المريرة، والعمل على تحقيق النصر بأقل تكلفة.[12] وكذلك، يمكن العثور على الكثير من قصص الخداع التي تتضمن نوعا من الحرب النفسية في الآثار والنقوش التي خلفتها الحضارات القديمة، كالحضارة الفرعونية وحضارات بلاد الرافدين وغيرها. ويمكن القول إن الحرب النفسية سابقا كانت ترتبط بالحروب والمعارك العسكرية، ويقوم بها المتحاربون قبل المعركة وأثناءها. وتذكر الدكتورة "حميدة سميسم" أن فكرة دعاية الفعل هي الأخرى كانت موجودة منذ القدم، فقد نصح "صن تزو" في كتابه آنف الذكر باغتيال قادة العدو لخلق الرعب في صفوفه وتأكيد قدرته وسيطرته على زمام الأمور. وعلى الرغم من أن الوسائل الإعلامية والدعائية في الماضي كانت بسيطة وبدائية، إلا أنها مع ذلك كانت تؤدي فعلها بنجاح.[13]

[11] - رفيق سكري، مرجع سابق، ص 135.

[12] - د. جيهان رشتي، الإعلام دعاية، واستعمال الراديو في الحرب النفسية، دار التوفيق النموذجية للطباعة والجمع الآلي، القاهرة، 1985، ص 279.

[13] - د. حميدة سميسم، الحرب النفسية، الدار الثقافية للنشر، ص 10.

لم تتضح معالم الحرب النفسية بمفهومها الحديث إلا مع الحرب العالمية الأولى، وازدادت تلك المعالم وضوحا إبان الحرب العالمية الثانية حيث انخرط الجميع في القتال واتسعت دائرة الحرب لتشمل العسكر وغير العسكر. ونظرا لأهميتها، أنشأ الزعيم النازي الشهير "أدولف هتلر" وزارة خاصة بالدعاية والتنوير، أو للإرشاد، وعين وزيرا لها هو "جوزيف غوبلز" الذي قيل إن "هتلر" كان يعتبر وزارته هي الأهم في حكومته. وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية، ظهرت الكثير من الدراسات والتحليلات التي ذهب بعضها إلى أن الحرب النفسية كسبت الحرب، أو أنها كانت أحد أهم الأسباب التي جلبت النصر للحلفاء.

لقد أصبحت الحرب النفسية اليوم علما قائما بذاته، له متخصصون وهم يعملون على تطويره واختراع الوسائل والطرق التي تجعل منه أداة فعالة في كسب الحرب أو خسارتها، مستخدمين المنهج العلمي وتقنيات العلم الحديث. وهي في النهاية تطبيق لبعض أجزاء علم النفس، وعلم النفس الاجتماعي، وعلم الاجتماع. ومن خصائص الحرب النفسية والدعائية الحديثة أنها تمارس في شتى المجالات السياسية والاقتصادية والدبلوماسية والثقافية والفكرية والعقائدية والأيديولوجية، هذا بالإضافة إلى المجال العسكري الذي نشأت وترعرعت من خلاله. لذلك، أصبحت الحرب النفسية سمة من سمات الحروب الحديثة بحيث لا يمكن الاستغناء عنها في كل نزاع.

ومن مقومات نجاح الحرب الدعائية؛ المعرفة باتجاهات وظروف المجتمع الذي توجه إليه، ومراعاتها للمستوى العقلي والثقافي والتعليمي لمن توجه إليه. كما أنه، بشكل عام، يميل الناس إلى تصديق الدعاية التي تسبب لهم الشعور بالسعادة أكثر من تلك التي تسبب القلق واليأس. هذا باختصار شديد، لأن البحث في الدعاية السياسية والحرب النفسية قد لا تستطيع دراسة مطولة الإحاطة بها.

بقي أن نشير إلى قضية مهمة أشارت إليها الدكتورة حميدة سميسم، وهي أن الحرب النفسية لا تقتصر على الدعاية والإجراءات الإعلامية، أو الوسائل غير الفتاكة " والصحيح أن الحرب النفسية تتوخى إحداث تغيير في السلوك العام للعدو بطريقة تتناسب وأهداف

مستخدمها، مستعملة وسائل يتجاوز تأثيرها النفسي التأثير الجسماني ويغالبه. ويمكن لهذه الوسائل أن تتضمن أدوات عسكرية معروفة مثل الغارات الجوية والقصف المدفعي أيضا، فضلا عن إثارة الفوضى والتخريب... إلخ.[14]وهو ما فعله النظام السوري بشكل مبالغ فيه.

الدعاية الإسرائيلية:

يجب أن نعمل، ولنعمل بسرعة فائقة قبل أن يستفيق العرب من سباتهم فيطلعوا على وسائلنا الدعائية، فإذا استفاقوا ووقعت بأيديهم تلك الوسائل، وعرفوا دعاماتها وأسسها، فعندئذ لن تفيدنا مساعدات أمريكا.

(مناحيم بيغن)

ليس هذا الموضوع غريب عن النص، وليس خارج السياق، بل يقع موقع القلب من الجسد لما سيتم طرحه، ولما للقضية الفلسطينية وما يتفرع عنها من حيز جوهري ومركزي في ثقافة الشعب السوري، وربما سيكتشف القارئ أن هذه النقطة بالذات هي بالفعل بيت القصيد، وأنها تستحق المزيد من الاستفاضة.

تعتبر الدعاية الإسرائيلية أنموذجا للدعاية الناجحة التي يمكن القياس عليه. ومن جهة أخرى، يعتقد أن الحديث عن دعاية ناجحة يقوض بعض دعائم المقولة الشهيرة: "إسرائيل ومن خلفها يهود العالم يتحكمون بالعالم". وهو ما سوف يتم التطرق إليه في موضع آخر من هذه الدراسة. واستباقا لبعض التساؤلات، وربما الاستنكارات، لا تنكر الدراسة أن إسرائيل ذات مكانة مرموقة لدى معظم دول العالم. وخاصة، الكبرى منها، وهي حاضرة دائما في خطابات رؤساء أمريكا، سواء من خلال الحملات الانتخابية، أم من خلال خطاباتهم وهم في سدة الحكم، كما أنها صاحبة شأن لدى موسكو، بالإضافة إلى علاقاتها المتينة مع دول الاتحاد الأوربي، وحتى الصين ليست بعيدة عن هذه الأجواء. ومثل هذا القول يصح فيما لو كان يُقدم كبرهان على

[14] - د. حميدة سميسم، مرجع سابق، ص 10.

نجاح السياسة الإسرائيلية وتفوقها، وهو أمر لا يمكن إنكاره، لكنه لا يصح كبرهان على تحكم إسرائيل بدول العالم.

أحد جوانب النجاح والتفوق الإسرائيلي والذي يعتبر على صلة وثيقة بموضوع البحث، هو النجاح على مستوى الدعاية، وفي هذا الصدد يذكر الدكتور حامد ربيع في كتابه "فلسفة الدعاية الإسرائيلية كلاما يقترب كثيرا من وجهة النظر التي يطرحها هذا البحث حيث يقول: استطاعت الدعاية الصهيونية أن تحقق نجاحا كبيرا على مستوى القارة الأوربية... والسؤال هنا، لماذا هذا النجاح المستمر للدعاية الصهيونية في هذه القارة وغيرها؟ والجواب عن ذلك لا يمكن حصره بأن الأسباب الرئيسية تعود إلى الأقليات اليهودية في أوربا ودورها الضاغط على الرأي العام الأوربي، أو إلى المواقف المتحيزة عموما للأوربيين ضد العرب. إن حصر الإجابة بهذه الأسباب ما هو في نظرنا إلا الجهل لأبسط مبادئ الدعاية وأسسها. لقد حاولت الدعاية الصهيونية منذ بدايتها أن تتعامل مع كل مجموعة بشرية على أساس معرفة خلفيتها الاجتماعية والحضارية، وهي في أي دعاية موجهة ضد أي طرف تستعمل المنطق الذي ينسجم مع معطيات ذلك الطرف وخلفياته، معتمدة بذلك على دراسات سابقة قامت بها في مجالات شتى[15].

الحقيقة أنه لم تترك الدعاية الصهيونية وسيلة إلا استعملتها لكسب المؤيدين، بصرف النظر عن كون هذه الوسائل مشروعة أو غير مشروعة، أخلاقية أو غير أخلاقية، ما دام في ذلك خدمة لتحقيق المصلحة الصهيونية. ومن هذه الوسائل نذكر: توجيه الدعوات وإقامة المؤتمرات، التبادل الثقافي، الاتصال بمراكز القوى، تشجيع السياحة الخ...

إن الدعاية السياسية والحرب النفسية اللتان تشنهما إسرائيل ضد الشعب العربي مبنيتان على أسس علمية تهدف إلى جعل المواطن يشكك في واقعه وقدراته، وحتى في نفسه. يقول "مناحيم بيغن" في أحد مؤلفاته: "يجب أن نعمل، ولنعمل بسرعة فائقة قبل أن يستفيق

[15] - د. حامد ربيع. فلسفة الدعاية الإسرائيلية، ص 79.

العرب من سباتهم فيطلعوا على وسائلنا الدعائية، فإذا استفاقوا ووقعت بأيديهم تلك الوسائل، وعرفوا دعاماتها وأسسها، فعندئذ لن تفيدنا مساعدات أمريكا"[16].

إذن، فالصورة التي يتخيلها العرب عن إسرائيل ترجع في معظم مفرداتها إلى الدعاية الإسرائيلية، التي أعجب المثقفون العرب بمحتواها لغاية في نفس الحكام الذين يعمل هؤلاء المثقفون لصالحهم، فقاموا بعزف نفس اللحن وتطويره إلى أن وصلت الأمور لدرجة أن أصبحت الفكرة القائلة بأن إسرائيل ومن خلفها يهود العالم تتحكم بالعالم حقيقة مطلقة لا تقبل الجدال لدى شريحة واسعة من الشعوب العربية بشكل عام، والشعب السوري بشكل خاص. والملاحظة الأخرى التي يجب تسجيلها؛ أن هذه الدعاية الإسرائيلية المتقدمة والناجحة، كانت مبنية على أسس علمية، وأنها كانت تختلف من حيث الشكل والمضمون بحسب الجهة المستقبلة، وأنها كانت توجه بلغات مختلفة. بمعنى أنها كانت توجه إلى مجموعات متعددة، ومن ثم، تصاغ هذه الدعاية بأشكال متعددة بعدد الجهات المستهدفة؛ كل يخاطب باللغة التي يفهمها.

أثبتت الدعاية الإسرائيلية ضرورة التمييز بين الدعاية الداخلية والدعاية الخارجية؛ الأولى تتجه إلى المواطن، حيث تستطيع الدولة من خلال تحكمها في أدوات الإعلام أن تخلق رابطة نفسية أساسها التدرج والتحكم في فيضان المادة الإعلامية، سواء من حيث الانطلاق أو من حيث الإعداد، أو من خلال خلق عناصر التأثير من خلال قادة الرأي المحلي. على أن الدعاية الخارجية على عكس من ذلك؛ لا تسمح بهذه العملية: إنها قذيفة تنطلق، وعليها أن تسير بقوة دفعها الذاتي بعملية دفعها الذاتي، وأن تقوم بنفسها من خلال منطقها الذاتي بعملية الضبط والاستجابة مع رد الفعل[17].

[16] - د. رفيق سكري، مرجع سابق، ص 125، 126.

[17] - د. رفيق سكري، مرجع سابق، ص 124.

إذن، فالنجاح الإسرائيلي يعود في قسم كبير منه إلى الدعاية السياسية الناجحة وليس إلى ما يتوهمه البعض من تحكم بأنفاس العالم. كما أن هذه الدعاية اتسمت بأنها اتبعت المناهج العلمية، وكانت تختلف بحسب الجهة التي توجه إليها تلك الدعاية.

بطبيعة الحال، ورغم عرض هذه النبذة الموجزة عن الدعاية الإسرائيلية، ليس المقصود أكثر من توضيح بعض جوانب المهارة الإعلامية وثقلها، فالدعاية الإسرائيلية عجزت الأنظمة العربية عن مجاراتها، فما بالك بثوار خرجوا لتوهم من غياهب سجنهم الكبير ليقولوا: كفى. فمن الطبيعي أن تكون مجاراة الدعاية الإسرائيلية أمر بعيد المنال، وكذلك، من الطبيعي أن تكون مجاراة إعلام النظام وأساليبه الدعائية فيها الكثير من الصعوبة.

نزال غير متكافئ:

> تفتقر الشعوب الواقعة تحت الاحتلال إلى القيام بعملية دعاية مضادة في الحرب النفسية، على غرار الحرب النفسية بين الدول، وذلك بسبب ضعف إمكانياتها التكنولوجية والمادية اللازمة من أجل ذلك.
>
> ***(يوسف محمد قاسم)***

في البداية يجب التذكير أن النظام السوري كان يمارس الحرب النفسية والدعاية السياسية من خلال وسائل إعلامه طوال سنوات حكمه، وإن كانت الحرب النفسية تعتمد وسائلا أخرى أكثر من اعتمادها على وسائل الإعلام، ومع انطلاقة الثورة أصبح المحتوى الإعلامي الذي ينشد الدعاية والتشويش النفسي أكثر حضورا. ويعتقد أنه من الطبيعي أن يتفوق النظام السوري على خصومه الثوار في حربه الدعائية والنفسية لعدة أسباب منها:

- امتلاكه لجهة مركزية مختصة تستطيع أن توحد الخطاب وأن تضمنه ما يتوافق مع متطلبات المرحلة.
- توفر الخبراء والمختصين، أو إمكانية الحصول على مساهمات بعضهم من دول أخرى.

- امتلاكه السلطة الكافية لتخويف المؤيدين ومنعهم من متابعة وسائل الإعلام المناهضة.
- المعرفة التامة باتجاهات وظروف مجتمع الثوار، وكذلك المستوى العقلي والثقافي والتعليمي لهذا المجتمع، فهؤلاء بالأمس كانوا في عداد الشعب السوري الذي خضع لسلطتهم لما يقارب الخمسة عقود، وهذه النقطة بالتحديد تحتاج إلى التوقف عندها مطولا.

في الاستراتيجيات العشر للتحكم بالشعوب، والمنسوبة في عدة مصادر على شبكة الانترنت للمفكر الأمريكي "نعوم تشومسكي" تتحدث الاستراتيجية العاشرة عن "معرفة الأفراد أكثر مما يعرفون أنفسهم: خلال الخمسين سنة المنصرمة، حفرت التطورات العلمية المذهلة هوة لا تزال تتسع بين المعارف العامة وتلك التي تحتكرها وتستعملها النخب الحاكمة. فبفضل علوم الأحياء، بيولوجيا الأعصاب وعلم النفس التطبيقي، توصل النظام إلى معرفة للكائن البشري، على الصعيدين الفيزيائي والنفسي. أصبح هذا النظام قادرا على معرفة الشخص العادي أكثر مما يعرف نفسه، وهذا يعني أن النظام – في أغلب الحالات – يملك سلطة على الأفراد أكثر من تلك التي يملكونها على أنفسهم".

في واقع الأمر، هذا الطرح ليس طريفا، بل هو توصيف لواقع أصبح ملموسا، فالمواطن اليوم يقع تحت الهيمنة الكاملة للأيديولوجيا السائدة في النظام السياسي، فالطبقة الحاكمة تسعى من خلال الوسائل التي تمتلكها (الإعلام، التعليم، التنشئة السياسية، وسائل صناعة وبث الشائعات) أن تصنع مواقف مواطنيها وآرائهم بحيث تصبح متوافقة مع الخط السياسي الفكري الذي تتبناه. فالإعلام الموجه يسعى إلى تعديل النظام الإدراكي بصورة مستمرة من خلال ترسيخ بعض المقولات وتحويلها إلى مسلمات، ومن خلال حذف وإضافة بعض المكونات والأفكار، لإعطاء صورة مزيفة عن الواقع. أو كما يقول "عبد اليد شكري": إن الإعلام

والاتصال عن طريق معلوماته هو الذي يرسم اليوم ما يمكن أن يسمى بالخريطة الإدراكية الوجدانية للشعوب.[18]

إذن، فالقضية لا تقتصر على جمع المعلومات حول المواطنين، بل تتعدها إلى المعرفة بطريقة تفكير هؤلاء، ومحتوى ثقافتهم، ذلك أن السلطة في واقع الأمر هي التي اختارت للشعب ثقافته وطريقة تفكيره. وتبدو هذه الظاهرة أكثر تجليا في المجتمعات التي تحكمها أنظمة الاستبداد. وهكذا يصبح نمط التفكير واحدا، يدور ضمن الإطار الذي رسمته السلطة، ومغادرة الإطار، أو التفكير خارج الصندوق يعتبر من المحرمات. وعليه، يمكن القول إن خروج القسم الأكبر من الشعب السوري في ثورة، لا يعني بأي شكل من الأشكال أنه غادر الإطار، والشيء الوحيد الذي يمكن أن نقول إن السوريين تحرروا منه؛ هو السلطة الأمنية فقط.

يعتقد البعض أن مجرد التخلص من السلطة الأمنية يعني التخلص من الأفكار والمعتقدات وطريقة التفكير التي أنتجتها السلطة، فاليوم وبعيدا عن الرقابة يستطيع المواطن وعن طريق وسائل التواصل الاجتماعي أن يطلع على ما يرغب به، وأن يشكل قناعاته وأفكاره وثقافته بحرية تامة. وفي واقع الأمر أن هذا المعتقد نظري وسطحي، فالثقافة والقيم عندما تصبح متجذرة يصعب اقتلاعها، بل وتصبح عامل تقوقع وانكفاء. وفي هذا الصدد يقول "دومينيك وولتون": بالأمس، وعن طريق استخدام تقنيات محدودة، كانت الرسائل المتبادلة تعني جمهورا متجانسا. أما اليوم، فالرسائل لا تعد ولا تحصى، والتقنيات شبه كاملة، والمتلقون الذين هم في تزايد مستمر، متباينون متحفظون. والسبب في ذلك لا يعود إلى اللغات وحسب، وإنما إلى تصادم التصورات والثقافات والرؤى إلى العالم. في مثل هذه الحالة لم يعد كافيا أن نسرع من وتيرة إنتاج وتوزيع المعلومات من أجل تحقيق تواصل أكبر، لا بل من شأن ذلك تضخيم النزاعات، ولأول مرة في التاريخ يحدث مثل هذا الفكاك.[19] وفي موضع آخر من نفس الكتاب يقول "وولتون": إن إطلاق المواعظ على الأجانب ليس أفضل طريقة لإقناعهم. فكثيرا ما يظن الزعماء السياسيون أن المشكلة ببساطة هي أن الآخرين

[18] - عبد اليد شكري، الاتصال الإعلامي والتنمية، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، 1995، ط1، ص 4.

[19] - دومينيك وولتون، الإعلام ليس تواصلا، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2012، ص 20، 21.

تنقصهم المعلومات، وأنهم أذا عرفوا ما نعرفه، ببساطة، سوف يرون الأشياء بطريقتنا. ولكن كل المعلومات تنفذ من خلال المصافي الثقافية، والبيانات الخطابية الحماسية نادرا ما يسمعها الخاطبون كما هو مقصود.[20]

في هذا السياق لا شك أن كثيرون قد لاحظوا أن هناك عدد كبير من الناشرين وكتاب المقالات أو المدونات الصغيرة، الذين يبدو أنهم قد نذروا أنفسهم للتصدي لفكرة التلاقح الثقافي، أو ما يمكن أن نسميهم "بناة السدود والأسوار" لمنع الإنسان العادي من مجرد الالتفات خارج قفصه الذي وضع فيه. فترى هؤلاء يصطادون بطريقة انتقائية محكمة، كل معلومة أو مقولة من شأنها أن تجعل الإنسان ينفر من الآخرين ويزداد تقوقعا حول ثقافته ومعتقداته.

في المقابل، وهنا تكمن المعضلة الكبرى، فلأن الثورة لم تكن لها قيادة موحدة؛ لم تكن لها جهة إعلامية مركزية تقوم بأعباء تلك المهمة ذات الأهمية المرتفعة، مهمة إنتاج خطاب يحمل في طياته الدعاية السياسية المناسبة، والتصدي لإعلام النظام وللحرب النفسية التي مارسها على أوسع نطاق، والإسهام في تطوير وعي مجتمعي بالقضايا الجوهرية المرتبطة بالعدالة والمساواة، وتعزيز ثقافة الديمقراطية، واحترام الرأي الآخر... إلخ. ولكن ذلك لم يمنع ظهور محطات إعلامية معارضة تتحدث باسم الثورة، لكنها وبشكل عام، وربما بسبب المنافسة على استقطاب أكبر عدد من الجماهير، قيدت نفسها بما يطلبه الجمهور رغم مساحة الحرية التي أتيحت لها. وقد يكون ضعف المهنية وضعف التمويل عوامل أخرى أثرت على مستوى أداء تلك الوسائل الإعلامية. وعن دور الصحافة بالثورة السورية، يقول الصحافي السوري علي عيد، رئيس رابطة الصحفيين السوريين: "إن هناك نوعين من ممارسة المهنة، يتمثل الأول بصحافة المواطن التي نقلت الواقع في بدايات الثورة، واستمرت في نقل جوانب من هذا الواقع، لكنها شيئًا فشيئًا وقعت في مطبات عديدة، منها عدم قدرتها على مجاراة التحولات السياسية والميدانية، ومنها ما يتعلق بالجانب الحرفي، ومحاولة تقديم ما يحصل بصورة انفعالية". وأضاف: "يتمثل النوع الثاني في مجموعة الوسائل الإعلامية من راديو

[20] - دومينيك وولتون، المرجع السابق، ص 166.

وصحف ومواقع إلكترونية وأقنية تلفزة، وهذه الوسائل لم تستطع بعدُ الوصول إلى المأمول؛ بسبب وجود صراع بين ثلاث لغات هي لغة الممول، ولغة الناس، ولغة الصحافي نفسه أو لغة انتمائه، لذلك فإن مسمّى "إعلام الثورة" هو صيغة غير واقعية، وهذه الصيغة ربما استطاعت أن تكون ناقلاً للحدث، إلا أنها لم تستطع تكوين صورة كلية لحقيقة ما يجري على الأرض، بالتوازي مع عملية تصويب سليمة على ما هو انفعالي وما هو واقعي"[21]. أما بخصوص وسائل التواصل الاجتماعي، فقد عكست الجانب الأهم من خطاب الشارع الثوري، وبالتالي ثقافته وطبيعة تفكيره الموروثة بكل علاتها. كما أن مواقع الشبكات الاجتماعية على الإنترنت ليست حكرا على المحتجين والمعارضين، أو الثوار، ولعل تلك المواقع سهلت على الحكومات تعقب اتجاهات الناشطين وخططهم، ومحاولة تحويل اتجاه المناقشات بدفع أشخاص لنشر تعليقات وآراء مؤيدة للنظام. بل ويمكن القول: إن كثيرا مما ينشر من خلال وسائل التواصل الاجتماعي يضع الباحث في حيرة من أمره إذا أراد الحكم على صاحب الكلام أهو يقول ما يقول لأنه أحد أتباع النظام المتقمصين لشخصية الثوار لإيصال بعض الرسائل النفسية، أو الدعائية، أم أنه يقول ما يقول نتيجة لسطوة الموروث الثقافي.

جيش إلكتروني، أم طابور خامس، أم هي طباع موروثة؟

عندما يفعل الرجل شيئا غبيا حقا فهو في الأغلب يمتلك دافعا نبيلا وراء ذلك

(أوسكار وايلد)

في مقال ملفت، تحت عنوان "جيش النظام الالكتروني صاغ خطاب الثورة" ذكر الكاتب والباحث السياسي: عبد الناصر الحسين الكثير مما له علاقة في هذه الورقة، نقتطف منه التالي:

[21] - عمار خصاونة، الإعلام في الثورة السورية .. العلاقة والضحايا.
https://geiroon.net/archives/82115

من بداية ثورة الكرامة السورية سارع النظام الأسدي برعاية ايرانية ولبنانية إلى بناء «جيش الكتروني» تشبيحي، تعداده بالآلاف، يقوم عليه كبار التشبيح الإعلامي من لبنان وإيران وسوريا على رأسهم الشبيح «غسان بن جدو وناصر قنديل ووئام وهاب ولونا الشبل وخالد العبود وبعض أتباع أحمد حسون». وقد أسندت لهؤلاء مهام قذرة هدفها تسويق النظام المحتل كنظام شرعي وقوي ومحمي دوليا، نظام لا يمكن الاستغناء عنه عالمياً بوصفه نظاما علمانيا يتصدى للإرهاب نيابة عن العالم بأسره، وبالمقابل تشويه سمعة الثورة السورية وتسويقها على أنها إرهاب تخريبي إسلامي يواجه سلطة دستورية شرعية.

وهذه أبرز النقاط التي يبثونها في الفضاء الإعلامي الالكتروني المظلم:

- الترويج لنظرية «المؤامرة الكونية» ضد الشعب السوري للإيهام بأن الشعب الثائر منبوذ دوليا ومعزول عربيا.
- ترويج فكرة «العزلة للشعب السوري» ويُتْمِ الثورة السورية والتركيز على شعار «ما النا غيرك يا الله» وأن العالم كله يريد القضاء على الشعب السوري.
- التغطية على «إيران» بمهاجمة دول الخليج وخاصة السعودية وقطر والإمارات وتسميتهم بالعربان.
- الادعاء بأن مجموعة «أصدقاء الشعب السوري» تتآمر مع النظام في الخفاء.
- الترويج بأن «الائتلاف» ينسّق مواقفه مع الغرب للإيهام بأن هذه الفكرة «عورة وعار» لتجنبها.
- رفض فكرة «التدخل الاجنبي» بتشويه صورة الغرب وإشاعة أن لهم مآرب استعمارية.
- الترويج لفكرة أن إيران متحالفة مع أمريكا وأن اسرائيل تنسق مع النظام الطائفي.
- الترويج لفكرة أن العالم يحارب الإسلام وتحديدا العالم الغربي.
- الترويج لفكرة أن أمريكا واسرائيل طلبتا من حزب الله أن يتدخل في سوريا.
- إشاعة الخطاب المتطرف على أوسع نطاق وطرح مصطلحات معينة ومحددة مثل: «ضرب الرقاب والجزية والحدود والسبايا والعلمانية والردة والصحوات» ومقولة «ملة الكفر واحدة».

هذا أهم ما ينشره شبيحة الأسد! وهم يهدفون إلى صياغة خطاب سياسي للثورة لقطع الطريق على تبلور الخطاب الثوري الناضج والمقبول شعبيا ودوليا، وقد نجحوا إلى حد كبير في هذا العمل مما أدى إلى انتشار لغة الكراهية التصادمية السوداوية في الثورة السورية، وتراجع سمعة الثورة السورية.22

رغم أن الباحث لا يخالف كاتب المقال فيما ذهب إليه، ولكن ربما توجد بعض الآراء التي تعتبر أن الكاتب قد بالغ فيما عرضه، ولكنه في نفس الوقت، لا أحد يستطيع أن ينكر أن النظام ومنذ بداية الثورة أسس ما يسمى بالجيش الإلكتروني، وأنه مارس وما زال يمارس أنشطته المشبوهة. هذا فيما يخص الجيش الإلكتروني، فماذا عن الذين يجلسون بين الثوار ويحسبون عليهم، وهم يتكلمون بلغة لا تخلو من إثارة الشكوك والتخوين والإحباط؛ لغة تحمل في طياتها الحنين إلى الماضي بشكل جلي وواضح، فهل هؤلاء أعضاء في الطابور الخامس؟ كما أنه لا يمكن إنكار وجود الجيش الإلكتروني، كذلك لا يمكن إنكار وجود جماعات الطابور الخامس في صفوف الثورة. ولكن من يتكلمون بتلك اللغة التشاؤمية كثر، فهل يعقل أن كل هؤلاء هم طابور خامس!

في أكثر من مرة توافق السوريون مؤيد ومعارض، بل ويمكن القول إن التوافق هو السمة العامة، وبما أن المؤيدين لا موقف لهم، أي هم يرددون ما يلقنون، يمكن القول إن التوافق في المواقف كان يحصل بين النظام وجمهور الثورة. والأمثلة على ذلك كثيرة، كالتوافق على العداء للغرب، والعداء لدول الخليج، ولتركيا أيضا. كما كان هناك توافقا على رفض اللجنة الدستورية مثلا، ومؤاخرا، التوافق من قبل شريحة واسعة من الشارع الثوري مع النظام على رفض قانون قيصر. (بكل تأكيد، الحكم يشمل شريحة تكبر وتصغر تبعا للجهة أو القضية) وبخصوص قانون قيصر بالتحديد، عرض الباحث على جمهور واسع عبارة يتهم من خلالها أحد خطباء المساجد بأنه من جماعة الطابور الخامس لأنه اعتبر قانون قيصر جاء لمساعدة النظام. جاء في الردود والتعليقات ما يجعل الصورة أكثر وضوحا، فالنظرة التشاؤمية حيال القانون

[22] - لقراءة المقال كاملا:
https://syrian20.blogspot.com/2020/06/blog-post_23.html

تكاد تكون عامة. وعليه، يستحيل أن يكون كل هؤلاء هم طابور خامس، فالخذلان المستمر للشعب السوري، وظهور بعض الأعراض الجانبية لقانون قيصر في المناطق المحررة، بالإضافة إلى نشاط الجيش الإلكتروني والطابور الخامس له دور كبير في هذا الموقف، والأهم من ذلك؛ أن الثقافة السائدة ونمط التفكير اللذين سبق الحديث عنهما، لهما الدور الأبرز في تقبل مثل هذه الأفكار أو إنتاجها.

بالمختصر، وبغض النظر عن مصدر ما تفوه به السوريون وما كتبوه، سواء كان بتأثير الثقافة والطبع، أم كان بتأثير الطابور الخامس والجيش الإلكتروني للنظام، فإن القسم الأكبر مما تم طرحه وتداوله عبر وسائل الإعلام، وخاصة وسائل التواصل الاجتماعي كان من النوع الذي يطرب آذان النظام السوري. ولا أحد يستطيع أن ينكر أن الخطاب الطائفي، أو الخطاب الديني المتشدد، أو الخطاب الذي يحمل نقدا لاذعا ممزوجا بنوع من الحقد تجاه الولايات المتحدة والدول الغربية بشكل عام، بالإضافة إلى تركيا ودول الخليج، أو خطاب المؤامرة، مؤامرة العالم علينا، أو حتى خطاب اتهامه بالعمالة لإسرائيل التي تسعى إلى إبقائه في الحكم؛ أنه خطاب مريح ومطمئن للنظام السوري. وربما يعزى كل ذلك إلى الانطلاق من أرضية تمت هندستها من قبل النظام، أو لنقل: الانطلاق من الثقافة المكتسبة في عهد الاستبداد، لذلك، يمكن القول: إن النزال كان في ملعب الخصم.

اللعب في ملعب الخصم:

لا يوجد عار في عدم المعرفة، ولكن تنشأ المشكلة عندما يُملأ الفراغ الذي تركه الجهل بالفكر غير المنطقي والسلوك المصاحب له.

(نيل ديجراس تايسون)

يقول أحد السوريين: إذا قامت إسرائيل بتقديم الجولان للنظام السوري على طبق من ذهب؛ سيكون ذلك اليوم أتعس أيامه، وسيشكل خلية أزمة تحت جناح السرعة للخروج من هذا المأزق. فالقضية الفلسطينية، وتحرير الأرض، ودعم المقاومة، والصمود والتصدي، ثم المقاومة والممانعة؛ يعتبرها النظام السوري أهم مرتكزات شرعيته، وهي في نفس الوقت سيفا مسلطا على رقاب كل من يخالفه في أية مسألة كانت، فالمخالف، حكما، هو متآمر يريد النيل من صموده العتيد. إذن، من الطبيعي ومن المتوقع أن توجه تهمة التآمر والعمالة للمتظاهرين منذ الساعات الأولى لانطلاق الثورة، وهذا ما حصل بالفعل؛ فانشغل أغلب السوريين بدفع هذه التهمة عن أنفسهم، واتخذوا وضعية الدفاع. وبالتالي، وافقوا من حيث لا يدرون على أن تكون المبارزة في ملعبه، فماذا كانت النتيجة؟

أولا– العمالة ومركزية العلاقة مع إسرائيل في الثقافة السورية

سيعرض الباحث نتائج استبيان يعتبر على صلة وثيقة بموضوع البحث، فرغم أن نتائج الاستبيان يمكن توثيقها من خلال الملاحظة، إلا أن الباحث فضل دعمها بهذا الاستبيان المؤلف من ثلاثة أسئلة وُجهت إلى خمسة وثلاثين شخصا تم اختيارهم من الفئة المتعلمة (خريجو معاهد متوسطة، طلبة جامعات، خريجو جامعات) والأسئلة حصرت الإجابة على كل منها بخياري نعم ولا فقط. وهي:

1- هل تعتقد أن إسرائيل ومن خلفها يهود العالم يتحكمون بالعالم؟
2- هل تعتقد أن النظام السوري عميل لإسرائيل وهي التي تمنع سقوطه؟

3- هل تعتقد أن ما يحصل في سوريا مخطط له مسبقا؟

كانت الإجابات على الشكل التالي:

السؤال	الإجابة (نعم)	الإجابة (لا)	النسبة المئوية للذين أجابوا (نعم)
السؤال الأول	30	5	%85.71
السؤال الثاني	32	3	%91.42
السؤال الثالث	32	3	%91.42

النتيجة متوقعة، ويعتقد أنها لن تكون مفاجئة لأحد، فهذه الأفكار والقناعات يمكن ملاحظة تبني أغلبية السوريين لها بكل سهولة من خلال ما يتم تداوله في الأحاديث البينية، أو من خلال ما ينشر عبر وسائل التواصل الاجتماعي، أو من خلال ما يصرح به عبر وسائل الإعلام المختلفة.

هذه الأفكار التي تحولت إلى قناعات مطلقة لا تقبل الجدال لم تأت من فراغ، إنها نتيجة لتلقين مستمر وخطاب مشوه من قبل نخبة أغلبها يعلم ماذا يريد، وهو تبرير الفشل للأنظمة العربية أمام دولة صغيرة. هذا فيما يخص السؤال الأول وإجابته. أما بالنسبة لفحوى السؤال الثاني وطبيعة القناعة المتولدة عنه، فيعتقد أنها بالأصل من إنتاج المناكفات السياسية بين النظام السوري ومعارضيه، سواء كانوا أفرادا، أم جماعات، أم حكومات. ومن بعد ذلك روجتها المخابرات السورية بالسر، أو لنقل قبلت بها على أن يتم تناقلها همسا بين المواطنين لما لها من فائدة في إيصال المواطن إلى حالة اليأس والاستسلام للقدر المحتوم. ثم دُعمت هذه القناعة من خلال تبني المعارضة السورية لهذه المقولة ظنا منها بأنها تؤذي النظام السوري، وتضربه في مقتل بأهم مرتكزاته، وأهم الموارد التي يعتمد عليها في تثبيت سلطته.

إن الإنسان عندما يصل إلى درجة القناعة بقضية ما؛ يلجأ دائما إلى البحث عما يدعم هذه القناعة، بينما تمر المعلومات التي تعارض قناعته من أمام عينيه مرور الكرام، وهو ما يسمى بالتحيز التأكيدي فالبشر يميلون عادة إلى جمع البيانات التي تؤكد أفكارهم فقط. فعلى سبيل المثال، هذه عينة من عناوين بعض الأخبار التي وردت عقب تصريحات إسرائيلية تدعي النية بضم الضفة الغربية إلى الكيان الصهيوني:

أوروبا تسعى لثني إسرائيل عن عمليات "الضم" حتى لا تضطر للردDW...23

الاتحاد الأوروبي يحذّر إسرائيل من ضم أجزاء في الضفة .. الشرق الأوسط24

إسرائيل "تتخوف" من عقوبات أوروبية حال ضم المستوطنات ... الأناضول.25

ألمانيا: ضم أجزاء من الضفة يجعل حل الدولتين غير قابل للتطبيق .. العربية نت.26

ألف نائب أوروبي يطالبون بوقف مخطط ضم أجزاء من الضفة .. DW.27

بريطانيا قلقة من احتمال ضم إسرائيل لأجزاء من الضفة الغربية

وزير الخارجية البريطاني دومنيك راب، قال إن خطوات من هذا القبيل ستلحق الضرر بالجهود الرامية لاستئناف مفاوضات السلام، وتتناقض مع القانون الدولي.28

23- أوروبا تسعى لثني إسرائيل عن عمليات "الضم" حتى لا تضطر للرد https://bit.ly/3fS2RXh

24- الاتحاد الأوروبي يحذّر إسرائيل من ضم أجزاء في الضفة .. الشرق الأوسط
https://bit.ly/2Bzi6VT

25- إسرائيل "تتخوف" من عقوبات أوروبية حال ضم المستوطنات
https://bit.ly/3fJrm8I

26- ألمانيا: ضم أجزاء من الضفة يجعل حل الدولتين غير قابل للتطبيق
https://bit.ly/2BvugZm

ألف نائب أوروبي يطالبون بوقف مخطط ضم أجزاء من الضفة
https://bit.ly/2B5fH5N

28- وزير الخارجية البريطاني دومنيك راب، قال إن خطوات من هذا القبيل ستلحق الضرر بالجهود الرامية لاستئناف مفاوضات السلام، وتتناقض مع القانون الدولي
https://cutt.us/RmNBy

الصين "تعارض" تصريحات نتنياهو بشأن ضم مناطق بالضفة الغربية. حسب المتحدث باسم الخارجية الصينية هوا تشون ينج في مؤتمر صحفي.29

روسيا تحذر إسرائيل من تبعات ضم الأراضي الفلسطينية.30

بكل تأكيد أن مثل هذه الأخبار لا تشكل أي فارق. ولا تلفت الانتباه، ولا تحدث الفارق قراءة معلومة تقول إن الفلسطينيين بعد انهيار الاتحاد السوفييتي اتجهوا إلى دول الاتحاد الأوربي للحصول على دعم قضيتهم في مواجهة الدعم الذي تتلقاه إسرائيل من قبل الولايات المتحدة، وكذلك لا تلفت الانتباه عبارة مذيع التلفزيون السوري متحدثا عن اتفاقية "كامب ديفد" عندما قال بالحرف الواحد: "عندما شُحط رابين للتوقيع"، ويقصد عندما شحطت الولايات المتحدة رئيس الوزراء الإسرائيلي وأجبرته على التوقيع. وكذلك حالة العداء المعروفة بين الرئيس الأمريكي "دونالد ترامب" ومعظم وسائل الإعلام الأمريكية الشهيرة، لا تخلق تساؤلا حول وجود تناقض مع المعلومة القائلة إن اليهود يتحكمون بالعالم من خلال تحكمهم بالإعلام وبالأموال، ومن خلال نفس الآلية (إهمال المعلومات المناقضة للقناعة، والبحث عن المعلومات التي تقويها) لم يتوقف أحد عند المعلومات التي أوردتها مراكز الأبحاث الأمريكية أن نسبة الذين صوتوا ل "هيلاري كلنتون" من اليهود بلغت 71%، ورغم ذلك خسرت "هيلاري كلنتون" وفاز "ترامب".31

وحتى معلومة بهذا الحجم أو المستوى لن تغير في الأمر شيئا: تبنت منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) يوم 18 أكتوبر/تشرين الأول 2016 -خلال اجتماع في

29- الصين "تعارض" تصريحات نتنياهو بشأن ضم مناطق بالضفة الغربية
https://cutt.us/tg2lh
30- روسيا تحذر إسرائيل من تبعات ضم الأراضي الفلسطينية
https://cutt.us/fdl8g
31- قراءة في التصويت الأميركي: انقسام على كافة المستويات
https://cutt.us/pGzQL
32- قرار اليونسكو: الأقصى تراث إسلامي خالص

العاصمة الفرنسية باريس- قرارا ينفي وجود ارتباط ديني لليهود بالمسجد الأقصى وحائط البراق، ويعتبرهما تراثا إسلاميا خالصا.32

تبذل الدكتورة ندى محمد الغاد وهي فلسطينية مقيمة في الولايات المتحدة جهودا جبارة في سبيل تحطيم هذه المقولة، وفيما يبدو أنه نوع من التطور لدى أحد متابعيها اعتبر ذلك الشخص أن إسرائيل لا تتحكم في العالم وإنما هي مدللة العالم، فأجابته الدكتورة ندى: هذا غير صحيح، والدليل على ذلك أنه لا توجد ولا دولة إلا ثلاث دول لها سفارات في القدس، ولا توجد في العالم سوى دويلات نكرة توافق على كل ما تريده إسرائيل. ودليل ثالث أن للسلطة الفلسطينية تمثيل في 136 دولة من العالم. دليل رابع، أن معظم دول العالم بما فيها كل دول أوروبا تطالب وتؤيد دولة فلسطينية. بالإضافة الى ما سبق، لا يوجد على الإطلاق أي دليل يثبت أن "الدول تفضل اسرائيل على العالمين" إلا فقط ما يتعلق بالولايات المتحدة بسبب أن إسرائيل تعمل موظفة "مخفر شرطة" متقدم عند أمريكا 33.

بالعادة، عندما يثار هذا النوع من الجدال يستحضر البعض بعض العبارات الصادرة عن بعض الجهات الإسرائيلية التي تفضل بقاء النظام السوري الحالي وعدم سقوطه، وفي الحقيقة توجد مثل هذه المقولات، لكنها عندما توضع في سياقها الطبيعي تصبح طبيعية، ومثل هذه التصريحات أو المواقف تتقاسمها إسرائيل مع كل الدول المعنية بالشأن السوري وليست خاصة بها، ويقصد هنا تفضيله عن البديل في حال التوقع أنه ربما يكون أسوأ من النظام الحالي.

هذه القناعة عندما تهيمن على جانب مهم من خطاب الثورة تعني أشياء خطيرة، وتتجلى خطورتها في ناحيتين مهمتين؛ الأولى، وهي تعني فيما تعنيه بقاء الشارع السوري، بشكل عام، يدور في الفلك الذي رسمه النظام السوري للشعب. وبالتالي، اللعب في ملعبه. فمثلا، يدور النقاش التالي بين سوريين محسوبين على الثورة: الأول: يشكك في القصة التي تقول

https://c utt.us/kAVfk

[33] - ندى محمد الغاد.

https://www.facebook.com/nedaalghad.

إن حافظ الأسد باع الجولان، ويستبدلها بتهمة الخيانة. الثاني: بانفعال! يا سيدي، إذا ثبت أن حافظ الأسد لم يبع الجولان؛ فأنا مستعد للاعتذار لابنه. الأول: وهل أنت في صفوف الثورة لأن حافظ الأسد باع الجولان؟ إذن، وماذا عن الموت تحت التعذيب؟ وماذا عن سحق كرامة المواطن السوري؟ وماذا عن حالات الاغتصاب داخل السجون؟ وماذا عن مصادرة الحريات؟ وماذا عن الفساد؟ وماذا عن... وماذا عن؟

إذن، فالمعادلة التي صاغها النظام السوري، أو المقياس الذي وضعه لتصنيف المواطنين والحكومات بين شريف وخائن من خلال الموقف تجاه إسرائيل مازالت تهيمن. وبالتالي، باقي الأمور تافهة وثانوية. فسلّم القيم الذي صممه النظام السوري ما زال هو المعتمد من قبل أغلب السوريين.

أما الناحية الثانية، وهي الأخطر، أن مثل هذه القناعات تخلق معادلة خطيرة، وهي استحالة سقوط النظام السوري. فإسرائيل ومن خلفها الصهيونية العالمية يتحكمون بالعالم، وإسرائيل هذه، تدعم النظام السوري؛ فأين المفر؟ وأين بارقة الأمل التي سيستند إليها السوريون؟ لا شك أنها من خلال هذه المعادلة؛ ستكون بانتظار معجزة.

ثانيا–المؤامرة

في البداية لا بد من التنويه إلى أن نظريات المؤامرة موجودة في كل المجتمعات، فالبشر – بشكل عام – يميلون إلى إرجاع الأحداث الكبيرة إلى أسباب كبيرة مثلها. وهذا ما يسمى بتحيز التناسب. إلا أن الإيمان بهذه النظريات تختلف نسبته من شعب لآخر، ورغم عدم وجود إحصاءات رسمية، أو لنقل إنه لم يتم الحصول على مثل هذه الإحصاءات، لكن الشائع أن الشعوب العربية من أكثر شعوب العالم إيمانا بنظرية المؤامرة. وفي سوريا مثلا، ومن خلال الملاحظة فإن النسبة قد تتجاوز ال 90%، ذلك أنها متبناة من قبل النظام الحاكم، فهي تفيد في تثبيت الحكم والسطوة. وعليه، فالسياسي ورجل العلم ورجل الدين يتكلم بها، فمن أين سيحصل المواطن على شيء مناقض لما يقال؟

إذن، لأن الأغلبية تؤمن بنظريات المؤامرة، كان الرد على اتهام النظام للمتظاهرين بالتآمر، وجاء الرد من قبل الثوار: إنها بالفعل مؤامرة، ولكن علينا وليست على النظام! وحقيقة الأمر، أنه مجرد الاعتراف بوجود المؤامرة، سواء كانت على الشعب، أم على النظام ينفي الصفة الشرعية عن الثورة، أي، هي حصلت بفعل فاعل، وليست نتيجة للظلم والقهر وامتهان كرامة المواطن وتجريده من أغلب حقوقه، وإلى ما هنالك من أسباب فعلية أدت بالشعب السوري لإطلاق ثورته، ويظهر الارتباك على أصحاب هذا الطرح عندما يسألون: لماذا يتآمر العالم علينا؟ من نحن؟ هنا، يلاحظ المرء أن الكلمة أطلقت هكذا، دونما أية مسوغات حقيقية، ولأن الحجج ضعيفة، يتم اللجوء إلى إجابات متضاربة، غير مترابطة منطقيا كما هو الحال دائما عند أصحاب نظرية المؤامرة، ويقصد هنا الإيمان بالمتناقضات، لكن معظم الإجابات في النهاية، تذهب إلى إجابة شبه موحدة وهي: يريدون تدمير هذا البلد. وهنا يفضل السكوت، لأن المجيب فيما لو سألته، لماذا يريدون تدمير هذا البلد؟ إما سيقدم مسوغات النظام ذاتها، وإما سيذهب بالحديث إلى اتجاهات غريبة، هذا إن لم يغضب. ولكن، ماهي مسوغات النظام؟

في طرحه لفكرة المؤامرة، يقول النظام السوري أن القوى الخارجية التي افتعلت الأزمة، إنما هي تحاول النيل من صمود هذا البلد، أو مقاومته وممانعته، وكحجة تداعب المشاعر أكثر، طمعا في ثرواته وموقعه، لذلك روج منذ البداية لنظرية أنابيب الغاز، ثم أتبعها بقصة الاكتشافات النفطية والغازية الهائلة، ومؤخرا أضاف إليها اكتشاف وادي السيليكون. ولأن الناس تميل إلى تصديق الدعاية التي تسبب لهم الشعور بالسعادة أكثر من تلك التي تسبب القلق واليأس. ولأن جمهور الثورة يعتقد أن الإيمان بهذه المقولات وترويجها يعتبر كنوع من البرهان على مدى فساد النظام السوري، وحجم اختلاساته من المال العام. سرت هذه الشائعات في أوساط الشارع السوري سريان النار في الهشيم. بل وتتحدث بها الأغلبية على أنها حقائق مطلقة.

بداية، لا يستطيع أمهر المحامين أو المزورين من تبرئة النظام السوري من اختلاس المال العام والخاص، ولكن رغم ذلك، يجب التنويه إلى أن ظاهرة الفساد هي سمة من سمات البلدان

الفقيرة، أو لنقل هي أكثر تجذرا وانتشارا في البلدان الفقيرة، فإثبات تلك التهمة لا يحتاج إلى الاعتقاد بوجود ثروات والمبالغة في حجمها.

إذن، ما دام كل ما قيل بهذا الشأن مجموعة من الأكاذيب فما هي الحقيقة؟ ولتكن البداية من نظرية خط أنابيب الغاز، ونورد ما تحدث به "روبن ميلز"[34] الخبير في استراتيجية الطاقة واقتصادياتها في مقالة بعنوان "نظرية خط أنابيب الغاز في سوريا، هي دراما ذات ميزانية منخفضة" قال فيها: "وفكرة غاز سوريا يدعمها ما يكفي من جذاذات الأدلة وأنصاف الحقائق من أجل جعلها معقولة. كان هناك بالفعل مناقشات بشأن خط أنابيب بين إيران والعراق وسوريا، ومن المقرر أن تنطلق الصادرات الإيرانية إلى أجزاء من العراق قريباً... لم تتمكن قطر حتى من تصدير غازها إلى جارتيها البحرين والكويت بسبب المعارضة السعودية. ما هي فرصها إذاً لبناء خط الأنابيب يمرّ على طول 1,500 كلم من الأراضي السعودية لتصل إلى الأردن وبعدها إلى سوريا؟

لذلك، إنّ هذه النظرية، كما هو الحال مع الكثير من المعلومات الخاطئة حول الصراع السوري، خطيرة. فهي تحوّل الأسد من مجرمٍ إلى ضحية وتصوّر المعارضة السورية بيادق جاهلة في أيدي عملاء أجانب. بالتالي، إنّ تبسيط الأسباب وراء حرب معقدة للغاية من شأنه أن يقلّص من فرصة التوصل إلى حل دبلوماسي أكثر مما هي عليه".[35]

وفي دراسة رصينة بعنوان "سوق الغاز الطبيعي وعلاقته بالمسألة السورية" يعالج المهندس السوري المختص علاء الدين الخطيب هذه القصة بشيء من التفصيل، ويمكن اختصار بعض الأفكار كالتالي:

- لا يوجد أي دراسات جدية موثقة من قبل الاتحاد الأوربي حول هذه الخطوط المفترضة.
- مثل هذا الخط مرتفع التكلفة، وهو نظريا يجب أن يعبر مناطق غير مستقرة سياسيا، فلا يمكن لأوروبا أن ترهن سوق الطاقة بها لاستقرار هش.

[34] - روبن ميلز: خبير في استراتيجية الطاقة واقتصادياتها، وصفته مجلة فورن بوليسي بأنه واحد من أعظم العقول في عالم الطاقة خلال العامين 2011 – 2015.

[35] - رابط المقال https://cutt.us/o7KEI

- الخيار الأسلم والأقرب والأرخص بالنسبة للاتحاد الأوربي زيادة استطاعة الأنابيب القادمة من ليبيا والجزائر.

ما زالت كافة الخطط الاستراتيجية لقطر تشي إلى أنها ستعتمد على تصدير الغاز الطبيعي المسال عبر البحار، مما يحقق لها استقلالية كاملة عن محيطها الجغرافي القلق سياسيا.[36]

أما القضية الأهم؛ فهي قضية الاكتشافات الحديثة التي جعلت من سوريا الثالثة عالميا بإنتاج الغاز، وفي هذا الصدد نستعين مرة أخرى بدراسة علاء الدين الخطيب، آنفة الذكر، حيث يتحدث عن قضية الاكتشافات معتمدا في دراسته على معلومات صدرت من أهم المراكز العلمية في هذا المجال. ويمكن أن نقتبس منها التالي: "منذ نهاية التسعينات بدأت دراسات استكشافية في شرق المتوسط، وقد توصلت جميعها لنتائج تؤكد وجود كميات كبيرة من

[36] - رابط الدراسة https://www.infosalam.com/syria/syria-studies/syria-gas-pipeline

المصادر في هذه المنطقة. الخريطة المرفقة صادرة عن المعهد الأمريكي للمسح الجيولوجي (USGS) وهو المعهد العلمي الأكثر موثوقية عالميا في هذا المجال.37

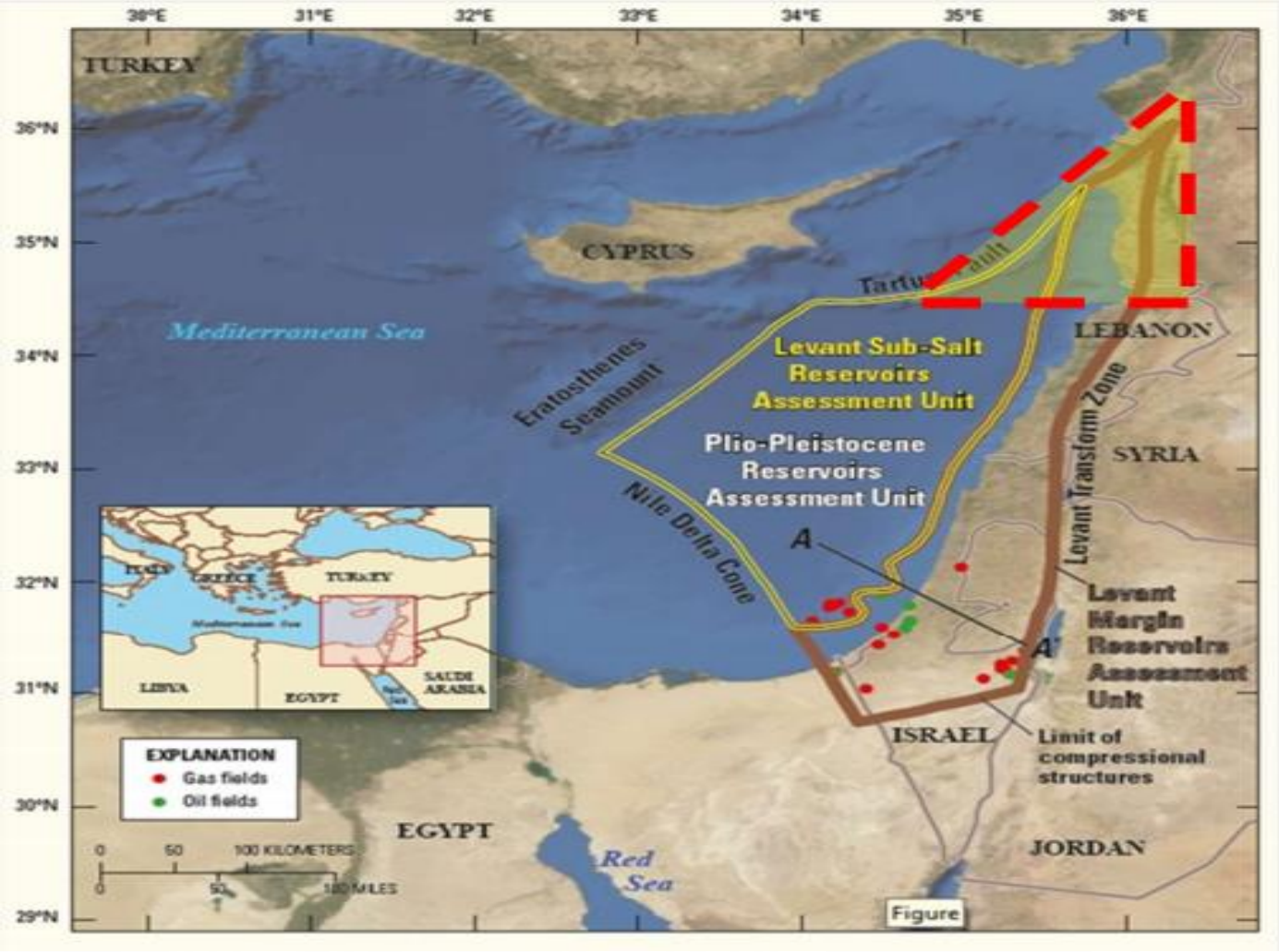

تبين هذه الخريطة مناطق الاحتياطي المتوقعة على ساحل البحر المتوسط الشرقي وامتدادها. هذه المنطقة المسماة "حوض الليفانت" تشبه لحد ما مثلث قاعدته قرب فلسطين وشمال مصر، حيث يتركز معظم المخزون، ويمتد المثلث قرب لبنان وينتهي على

37 - إدارة معلومات الطاقة الأمريكية.

http://www.eia.gov/todayinenergy/detail.cfm?id=8490

الساحل السوري مع امتداد إلى مياه قبرص. أي أن حصة سوريا كمساحة ضمن هذا الحقل هي الأقل بين البلدان الأربعة كما هو موضح في المثلث الأحمر المضاف إلى الخريطة.

يبلغ متوسط التوزيع الاحتمالي لاحتياطيات الغاز ضمن هذه المنطقة 3455 بليون متر مكعب من الغاز، ولتوضيح هذا الرقم، فإن احتياطي روسيا أكبر منه ب 16 مرة، واحتياطي إيران أكبر منه ب 10 مرات، واحتياطي قطر أكبر منه ب 7 مرات".

وزيادة في التوضيح، فإن هذا الحقل فيما لو كان كله يخص سوريا؛ لأصبح الاحتياطي السوري يساوي ما يقارب 7/1 من احتياطي قطر، فما بالك إذا كانت حصة سوريا أقل من الربع؟ هذا بالإضافة إلى عدم وجود أدلة علمية تثبت أن الكميات من الغاز المقابلة للشواطئ السورية ذات جدوى اقتصادية، فكل ما يقال حتى الآن يدخل في نطاق التخمينات والأماني.

ربما يشعر صناع الدعاية لدى النظام السوري أن بعض الدعايات أو الأكاذيب فقدت بريقها، فيلجؤون إلى إضافة أخرى، ففي الآونة الأخيرة انتشر الحديث عن مادة السليكون المكتشف حديثا في الأراضي السورية، وهي كذبة أشد وضاعة من سابقاتها، حيث تقول المعلومات العلمية بأن السيليكون ثاني أكثر عنصر متوفر في القشرة الأرضية؛ حوالي 28% حسب الوفرة. وعليه، رغم المحاولات الحثيثة للعثور على جدول أو معلومة تتحدث عن استيراد أو تصدير لهذه المادة، لم يتم العثور سوى عن معلومات تتحدث عن الدول الأكثر إنتاجا. أي، أن الدول التي تحتاج هذه المادة تنتجه من أراضيها لأنه متوفر بكثرة.

إن تصديق كل ما يقال بدون التحقق من مدى دقة المعلومة؛ يوقع الإنسان في براثن نظرية المؤامرة دون أن يدري. وبالتالي، يؤمن بما روجه النظام بأن ما يحدث في سوريا مؤامرة وليس ثورة. أو كما قال "روبن ميلز": فهي تحوّل الأسد من مجرمٍ إلى ضحية وتصوّر المعارضة السورية بيادق جاهلة في أيدي عملاء أجانب.

الخطاب الموجه إلى الداخل:

يعتبر تفريد الخصم في الحرب النفسية، من أساليب الحرب النفسية الموجهة بين الدول، وذلك بهدف عزله عن محيطه الخارجي. ومن الأمثلة التاريخية على ذلك، ادعاء بريطانيا أنها لا تحارب الشعب المصري وإنما تحارب الرئيس عبد الناصر.

(عبد الرحمن محمد العيسوي)

إن معرفة الأسباب والدوافع التي دعت قسما كبيرا من السوريين إلى الاصطفاف إلى جانب النظام وتجنب المشاركة بالثورة تفيد في معرفة طبيعة الخطاب الذي يجب أن يوجه إلى هذه الشريحة الواسعة والتي تقارب بتعدادها نصف الشعب السوري.

وقبل الحديث عن هذا القسم من الشعب السوري، لا بد من التذكير بأمرين مهمين يخصان سوريا والسوريين. أولهما ما ذكره "هينبوش" في دراسته: "تشكيل الدولة الشمولية في سورية البعث" بقوله: لقد قرر الموقع الجغرافي لسوريا قدرها التاريخي. إن كونها جسرا بريا بين قارات ثلاث ووقوعها وسط الصحراء والسهوب قد عرضها لتحركات أعراق متعددة ولغزوات القبائل البدوية، والتي ولدت (التنقلات والغزوات) تعددية ثقافية اجتماعية. إن التركيبة الجغرافية المعقدة لسورية شكلت أساسا بيئيا لتعددية اقتصادية اجتماعية عززت بدورها الاختلاف الثقافي. هذه التعددية، والاختراق القبلي المتواصل للمجتمع (بما في ذلك عادات الزواج من الجماعة نفسها)، والإنتاج المحلي القائم على الملكيات الصغيرة، وكذلك بدائية وسائل النقل والتواصل، هذه العوامل مجتمعة ولدت وحافظت على بنية مجتمعية مجزأة وذات انقسامات عميقة، ولم تولد نظاما شاملا موحدا ينتج قوى مكافئة تشاركية. كما أن سوريا، التي كانت جائزة تنازعتها الإمبراطوريات المتنافسة، وربما بسبب موقعها المكشوف،

لم تشهد عبر التاريخ قيام دولة متأصلة قادرة على توحيد مجتمع كهذا ينزع إلى الابتعاد عن المركز.[38]

وهو ما يعني أن المجتمع السوري والدولة السورية عرضة للتفكك والانهيار فيما لو تعرضت لهزة قوية، وهذا بدوره يشكل عامل خوف لدى الكثير من المجموعات التي ترى أن الدولة تحميها من المجهول. والأمر الثاني ذكره الدكتور محمد المختار الشنقيطي في كتابه "الأزمة الدستورية في الحضارة الإسلامية" حيث يقول: لقد حكم المسار التاريخي على الفقه السياسي الإسلامي بأن يكون فقه تكيف وتسويغ.[39] ويقصد التكيف مع الاستبداد والتسويغ له. أي، إيجاد المبررات له، فالتكيف والتسويغ جزء لا يتجزأ من الثقافة الإسلامية السائدة على مدى قرون. ويضيف الشنقيطي في مكان آخر من نفس الكتاب: في كتابه أصول النظام السياسي ينقل هنتغتون عن والترليبمان قوله: "ما من حاجة – بالنسبة إلى الذين يعيشون جماعات – أشد إلحاحا من أن يكونوا محكومين: بحكم ذاتي إذا أمكن، بحكم جيد إذا كانوا محظوظين، لكن أن يكونوا محكومين على أي حال." والأبلغ من ذلك... هو تعليق هنتغتون على هذه المقولة، حيث قال: "كتب السيد ليبمان هذه الكلمات في لحظة يأس من الولايات المتحدة". فاليأس من إصلاح السلطة السياسية – أو صلاحها – هو الذي يدفع الناس إلى قبول أي نوع من السلطة ولو كانت استبدادية جائرة.[40] ولعل ثقافة التكيف والتسويغ، وقبول أي نوع من السلطة يكفي لأن يكون دافعا لتردد البعض، ولعدم إيمان البعض الآخر بأن الشعب السوري سيخرج إلى الساحات للمطالبة بإسقاط النظام بأعداد كافية لإنجاز المهمة.

يفترض الباحث أن الدافع الأساسي وراء اصطفاف من يطلق عليهم اسم المؤيدون إلى جانب النظام هو: الخوف، وهو خوف مركب. فإلى جانب الخوف من البديل المجهول، هناك الخوف من احتمال انهيار الدولة وتفككها، فبعض أنظمة الاستبداد، ومنها النظام السوري؛ تقوم بتشكيل هرم السلطة بطريقة "صمام الأمان" بحيث يصبح رأس السلطة أشبه بصمام أمان

[38] - ريموند هينبوش، تشكيل الدولة الشمولية في سوريا البعث، ترجمة: حازم نهار، 2014، ط1، ص 51-52.

[39] - محمد المختار الشنقيطي، الأزمة الدستورية في الحضارة الإسلامية، من الفتنة الكبرى إلى الربيع العربي، منتدى العلاقات العربية والدولية، الدوحة، قطر، 2018، ط1، ص 72.

[40] - محمد المختار الشنقيطي، المرجع السابق، ص 72.

القنبلة، وهو في حال نزعه يحدث الانفجار. خاصة في بلد مثل سوريا يمتاز بتركيبة سكانية متعددة الثقافات كما ورد من كلام دقيق في كلام "هينبوش". كما أن أجهزة الدعاية والحرب النفسية للنظام السوري لم تقصر في دعم هذه المخاوف من خلال الخرائط المتخيلة لتقسيم سوريا.

وهناك الخوف الأهم، ألا وهو الخوف من انتقام النظام فيما بعد؛ لأنه سوف ينتصر في النهاية. وهنا تجب العودة إلى المعادلة التي تم التطرق إليها سابقا، وهي: إسرائيل تتحكم بالعالم، والنظام السوري مدعوم ومسنود من قبل إسرائيل، وبالتالي هو لن يهزم. كما يفترض أن النسبة الغالبة من هؤلاء تؤمن بهذه المعادلة، أو هذه المقولة أكثر من المعارضين والثوار أنفسهم. وعليه، فأغلب هؤلاء ممن فضل القفز إلى قاطرة المنتصر، وفضل الانتساب إلى الفئة الناجية حسب اعتقاده.

من أجل إيضاح الفرضية آنفة الذكر وإثباتها؛ هنا يجب التذكير بأن معظم السوريين الذين هم في صفوف الثورة لهم أقارب أو أصدقاء اصطفوا وتموضعوا في الجهة الأخرى، وأن معظم السوريين في بداية الثورة خاضوا نقاشا مستفيضا ومحاولات حثيثة للإقناع. كل طرف يحاول أن يقنع الطرف الآخر بصوابية قراره، فالثوار يرون أن هذا النظام زائل لا محال، مثله مثل بقية الأنظمة العربية التي تهاوت قبله، أما الخائفون فكانت لهم وجهة نظر أخرى، مبنية على معتقد مفاده أن هذا النظام يختلف عن بقية الأنظمة العربية، فهو عميل حتى النخاع، ومدعوم من كافة قوى الشر في العالم، وبالتالي يستحيل أن يسقط كما أنه نظام أثبت وحشيته وإجرامه بشكل واضح وجلي في أكثر من مناسبة، وهو لن يتوانى عن إبادة كل من يحاول إسقاطه حتى ولو كان الطرف الآخر غالبية الشعب السوري.

إذن، تحول الموضوع إلى رهان أكثر منه اصطفاف مبدئي وأخلاقي، وإلا كيف يمكن تصور أن يكون قسم كبير من أهالي مدينتي حلب وحماة في الصف المناوئ للثورة، وهما المدينتان اللتان كان النظام سابقا قد ارتكب المجازر بأهاليهما حيث دماء ضحاياه ما زالت رطبة. وهنا يجب التذكير أن عبارة "يكفينا ما حل بنا في الثمانينيات" عبارة سمعت بكثرة من أهالي

هاتين المدينتين، أما بالنسبة لبعض مكونات الشعب السوري من الأقليات، فاستياؤها وتململها من طبيعة النظام وسلوكه يستطيع ملاحظته كل من احتك ببعض هؤلاء عن قرب.

وبالفعل، شارك معظم هؤلاء بالاحتجاجات السلمية في بداية الثورة قبل أن يتم الفرز الذي انبنى على الخوف.

أيضا، يستطيع المرء أن يلاحظ بوضوح أن هذه القضية (قضية الاصطفاف) أصبحت رهانا من خلال عبارة "ألم أقل لك". هذه العبارة التي يرددها المؤيدون على مسامع معارفهم أو أقاربهم في الطرف الآخر عندما تميل الكفة لصالح قوات النظام. وعليه، فالمؤيدون، هم الخائفون في حقيقة الأمر، رغم أنهم يرددون عبارات علمتهم إياها وسائل الإعلام التابعة للنظام لكي يواجهون بها الطرف الآخر، ولكي يهربون بها من مواجهة أنفسهم على موقفهم المخزي.

في تبرير آخر، أو تفسير لموقف المؤيدين، يرى البعض أن هؤلاء في غالبيتهم العظمى ممن ارتبطت مصالحهم بهذا النظام، وبالتالي هم عبارة عن جماعة المستفيدين من منظومة الفساد التي نشرها النظام السوري على طول البلاد وعرضها، ولا يبتعد هذا التفسير عن تفسير الخوف، وربما هو يشير في أحد جوانبه إلى فكرة "الثقة". الثقة بأن هذا النظام باق، وإلا كيف يربط إنسان عاقل مصيره بنظام يعتقد بأنه سوف يزول؟ والثقة بأن النظام باق لا شك أن مصدرها أن هذا النظام يختلف عن باقي الأنظمة العربية. سواء من حيث التوحش والإجرام، أم من حيث بنية هذا النظام وطبيعة علاقاته المشبوهة. وهكذا نكون عدنا إلى نفس الدائرة، فالقول إن المؤيدين هم مؤيدون لأنهم خائفون، أو هم مؤيدون لأسباب مصلحية قد يكون سواء. كما أن لغة التخوين والتهديد والوعيد الموجهة إلى هؤلاء لم تخلق سوى زيادة في الانقسام الحاد، وتمسكا من قبل هؤلاء بمواقفهم.

مما سبق، يمكن القول إن الخطاب الموجه إلى هؤلاء، يفترض أن يكون عبارة عن محاولة إقناع بأن هذا النظام زائل، وأن البديل لن يكون أسوأ. وكل خطاب خارج هذا السياق يعتبر عبثا لا طائل منه، فالمؤيدون يعلمون مفاسد النظام أكثر من المعارضين، وهم كذلك يسيؤون الظن

به أكثر. لكن الذي حصل أن الخطاب الموجه إلى هؤلاء كان مزيجا من التحقير والتخوين والتهديد، وهو الذي خلق انقساما حادا ازداد عمقا مع زيادة المناكفات، لدرجة أنه أصبح مصدر تخوف لأصحاب أطروحات التعايش مستقبلا. ولعل الأخطر من ذلك هو التعميم المطلق، فكل من هم في المناطق التي يسيطر عليها النظام وبدون استثناء هم شركاء للنظام بجرائمه، بل هم مجرمون لا تُقبل لهم توبة، وعلى هذا الأساس تم النظر إلى حراك السويداء الأخير من قبل شريحة لا بأس بها ممن أدلوا بدلوهم في هذا الموضوع، علما أن حراك السويداء – في حقيقة الأمر – لم يكن حراكا يعبر عن توبة أو صحوة ضمير، بل هو حراك لثوار أوائل منعتهم ظروفهم الخاصة من ممارسة نشاطهم الثوري، وإنما تحركوا مؤخرا مستغلين فرصة أتيحت لهم.

بكل تأكيد، تعتبر مطالبة المجتمع الثوري، أو من يتكلم بلسان هذا المجتمع أن يواجه اللغة التشبيحية التي يمتاز بها النظام وأبواقه، اللغة الاستفزازية المقيتة بلغة تتسم بالرزانة والتوازن ضربا من الطوباوية، فهذا شبه مستحيل، خصوصا بالنسبة للشخص العادي الذي يعبر عن أحاسيسه وانفعالاته بالطريقة التي يراها مناسبة من وجهة نظره. وعليه، فما تم عرضه يأتي في سياق تحليل مضمون الخطاب.

الخطاب البيني:

من يحترفون إثارة الفوضى في المجتمع هم بالتأكيد الذين لا يملكون حلاً لمشكلاته ولكن يبحثون عن الزعامة وسط الفوضى

(فيودوردوستويفسكي)

تلك العبثية في الخطاب لم تكن مقتصرة في عيوبها على ما يخص الخطاب الموجه إلى الخارج أو إلى الداخل المصنف على أنه مؤيد، بل تعدى الأمر ذلك ليصل إلى الخطاب البيني، ففي البداية نجحت وسائل التواصل الاجتماعي في أن تلعب دورا بارزا في تحريك الشارع، ومن ثم نقل الصورة والخبر بعيدا عن هيمنة السلطة. أي، نجحت باستبدال المساحة العامة التي تسيطر عليها الأنظمة بمساحة عامة افتراضية. لكن وسائل التواصل الاجتماعي لم تنجح بإنتاج تنظيم افتراضي بديل قابل للتعويض عن التنظيم الفعلي للمجتمعات في الحالة الثورية. بل إن ما حصل هو العكس، فسرعان ما بدأت تطفو على السطح عوامل الانقسام والتفرقة من خلال بعض المقولات والتصنيفات اللاصحية على مستوى التنظيم، وربما كانت البداية من مقولة ثوار الخنادق وثوار الفنادق، وعلى نفس الوزن ثوار الداخل وثوار الخارج، بل ونفيت الصفة الثورية في كثير من الأحيان عن الذين غادروا البلاد، لتمتد بعدها عدوى التمايز والتصنيف إلى أن وصلت المناكفات للتراشق والمزاودة بين القريب من خط الجبهة ومن هو أبعد قليلا.

وفي ظاهرة أخرى لا تقل سوءا عن سابقتها؛ الانسياق الأعمى خلف حملات التشويه التي كان يقودها النظام السوري وحلفاؤه تجاه الشخصيات والمؤسسات الثورية التي تطفو على السطح ولو بشكل جزئي، فكثيرا ما عرض بعض الناشطين معلومات أو تسجيلات مصورة دون التأكد من مدى صدقيتها. ولم تتوقف الاتهامات بالبيع عند خسارة الثوار لأي منطقة لصالح النظام وكأن المناطق لا تسقط إلا عن طريق البيع، أو الخيانة بمنظور آخر. وعن هذه الظاهرة

كتب حسن الدغيم مقالا بعنوان: شيطنة الثورة .. غرسها علي دوبا ورعتها جاهليتنا. ذكر فيه أن النظام السوري طلب مشورة علي دوبا ونصائحه في مواجهة الثورة، وينقل عن لسانه أنه قال: أطيلوا الحرب حتى يقول الناس مللنا، وشَيْطِنوا البديل حتى يقول الناس "ماحَدَا أحسن من حَدَا" فتكونون نظاماً فاشلاً بين فاشلين.

هذا ما زرعه "علي دوبا" وسقيناه بجاهليتنا (اندفاعاً ومُزايَدةً وتشدُّقاً ونرفزة وغلواً وتطرفاً وحساسيةً وهواجس وفراغاً وبطالة وانتفاعاً). ماذا يعني ألّا تخرج شخصية سياسية إلا وتنهال عليها آلاف الحسابات شتماً وسباً وقذفاً حتى يُصوّر بين الناس على أنّه زير نساءٍ وخائن ومقامر وتاجر أعراض وبياع أوطان؟! لم يسلم من ذلك أحدٌ البتّة، حتى صار الصالحون من الناس يخشون اقتحام ميدان العمل السياسي خشية هذه الموجة المحمومة من الشيطنة والتسقيط والقدح. ماذا يعني أن تضجّ الفضائيات وعلى لسان أبناء الثورة بوصف قادة الجيش الحرّ بأنّهم لصوص ومارقون وأصحاب قصورٍ وأموال وأرصدة وبنوك؟! ماذا يعني أن تنشغل الأقلام ببعضها والسياسيون ببعضهم والعسكريون ببعضهم، ويتصايح الناس في قعر البئر وجلادهم يدليهم بحبل غرور؟! ماذا يعني أن أنتصر في نصف ساعة على فضائية ثم أعود لبيتي وقد أثخنت قطعة من جسد أخي بالطعنات؟! ماذا يعني أن أفشّ خلقي بمنشور فيسبوك وأنتشي منتصراً وكأنّي خضت معركة اليرموك؟! ماذا يعني أن أقذف وأشتم وأرجم كلّ مَن خالفني، وأسلخ جلد مَن عارضني، وأجعل من الخاص قطاعاً عامّاً ومن المناصحة الداخلية فضائح عالمية؟!

الفساد لا يُصحّح بالصراخ على القنوات الفضائية. ولا بمنح هدايا مجّانية لنظام الإجرام الأسدي يتباهى بها ويقول: هذا وصية المعلم "علي دوبا"[41]. وسواء كان ما رُوي عن حادثة المشورة صحيحا أم لم يكن كذلك، فإن ما ورد في التفاصيل يكاد لا يختلف عليه اثنين. بل ويُلاحظ أن البعض اتخذ من حملات التشويه سلوكا مفضلا يصعد من خلاله سلم الشهرة لما لهذا النوع

[41] - حسن الغيم، شيطنة الثورة .. غرسها علي دوبا ورعتها جاهليتنا.
http://nedaa-sy.com/literatures/65

من الخطاب من شعبية، ووصل مستوى التردي في حملات التشويه عند العجز عن الحصول على معلومة تسيء للشخص المستهدف أن تعرض صورة له وهو يأكل ويبتسم مثلا.

أما فيما يخص ثقافة الاختلاف وقبول الرأي الآخر فقد عكست الكثير من الحوارات غياب هذه الثقافة غيابا تاما، بل أظهرت ضيق الأفق وغلبة ثقافة من ليس معي فهو ضدي، وأحيانا عدوي الذي يجب مواجهته بالتهديد والوعيد والشتم. فالآراء تكاد تكون لأصحابها مثل الأعضاء والملامح، فهم من جهة يعتزون بها اعتزازا يخرج بالعلاقة عن إطار الموضوعية ويدلف بها إلى دائرة الذاتية والشخصانية، وهم من جهة أخرى يخلطون ما بين كرامتهم وكبريائهم، وأي مساس بتلك الآراء أو محاولة لدحضها أو تفنيدها أو حتى تعديلها[42] يعتبر مساسا بكرامتهم وكبريائهم. أي، بناء على ما سبق يمكننا القول: رغم كل تلك الأخطاء يعتبر النقد من المحرمات.

النقد في المحرمات

إن النقد هو أهم أداة بناء عرفها العقل الإنساني

(عمانوئيل كانط)

رغم ذلك، يعتبر النقد من المحرمات، علما أنه الوسيلة الوحيدة المتاحة لمحاولة تصحيح الأخطاء في ظل غياب سلطة مركزية تستطيع أن تعالج الأخطاء بالوسائل المتعددة التي تتوافر لدى السلطة إن وجدت. فالهدف الرئيسي للنقد الذاتي يتمثل في استدراك الأخطاء وتصحيحها، ورفض النقد الذاتي يعتبر رفضا للاعتراف بالأخطاء أو إنكارا لوجودها.

وضيق الصدر بالنقد من المسائل التي تتغلغل في عقول أبناء وبنات مجتمعنا منذ الصغر ويترسخ كأحد ملامح ثقافتنا، ثم تأتي سلبيات أخرى شاعت في تفكيرنا المعاصر لتجعل

[42] - طارق الحجي، نقد العقل العربي-من عيوب تفكيرنا المعاصر، دار المعارف، القاهرة، 1998، ط2، ص 68 و69.

المسألة بالغة الحدة: فعندما يجتمع ضيق الصدر بالنقد مع تقلص السماحة واتسام التفكير بالشخصانية (والبعد عن الموضوعية) مع النظرة الضيقة للآخرين (بصفتهم إما معنا أو ضدنا) ... والميل الجارف لمدح الذات – عندما يجتمع ضيق الصدر بالنقد مع هذه المعالم الأخرى الواضحة التي شاعت في جونا الثقافي، فإن حدة ودرجة الضيق بالنقد يبلغ أبعد مدى، وتصبح النظرة للنقد مشوبة بالغضب والتوتر والشك في النوايا والإحساس بوجود خطر متربص بنا[43].

ربما يعلم من خاض تجربة في مضمار نقد الذات أنه سرعان ما تلقى في وجهه عبارتين شهيرتين تعبران عن رفض تقبل النقد، الأولى: لماذا لا تنظر إلى نصف الكأس الممتلئ؟ والثانية: لا نريد جلدا للذات. وعن جلد الذات وعدم تقبل النقد يقول محمد الحمود: لقد لفت انتباهي الصراحة الشديدة التي تحدث بها المؤرخ والمفكر التونسي/ هشام جعيط عن العواطف الجماهيرية وغوغائيتها المنفلتة، خاصة عندما أشار إلى الأنظمة الكليانية العربية المتعسكرة التي حكمت بعد الاستقلال وعلاقتها بالثقافة وتشكلاتها. فقد أكد على أنها قد "اختلقت قضايا كبرى التفت حولها الجماهير، والجماهير غبية وسريعة التصديق تنجر إلى الحماس الفارغ كالصبيان"، مبينا أن هذا الوضع المزري الذي تم فيه استغلال الجماهير من قبل الحكومات الانقلابية/ الثورية هو أحد أهم الأسباب التي تقف خلف غياب الفكر العميق على جميع المستويات، مما نجم عنه تسطح الرأي العام العربي الذي بات "لا يقيم وزنا لهذا المثقف أو ذاك بسبب أعماله، وإنما فقط عندما يصدع برأي سياسي يستحبه الجميع، ولا يجسرون على إبدائه"[44].

إن أخطر ما في هذا الحماس الجماهيري/ الشعبوي أنه يقوم بتعطيل أهم الآليات الفكرية/ العقلية القادرة على تحقيق التجاوز النوعي للحالة الراهنة. أقصد بذلك: آلية النقد الذاتي. فلا تقدم ولا تطور دون نقد ذاتي مفتوح، وبلا حدود؛ كي يمارس تشخيص أدواء الأنا، لا في راهنها فحسب، وإنما في كل مراحلها منذ بداية تشكلها، أي منذ بدايات التشكل التي صنعت

[43] - طارق الحجي، المرجع السابق، ص 85.

[44] - هشام جعيط، أزمة الثقافة الإسلامية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2000، ط1، ص 39 و40.

ـ ولا تزال تصنع ـ عالم الوعي الراهن للأنا. الحماس الجماهيري المتنرجس لن يسمح بمثل هذا النقد، ولن يتسامح معه إن وجد، بل سيسعى لمحاصرته بشتى الوسائل، من غير أن يصرح بأنه ضد "النقد الذاتي" (هذا النقد الذي لم يعد يخفى على أحد أنه أصبح شرطا لأية فعالية تقدمية/ تطورية). إنه سيقف ضده وسيتصدى له على نحو مراوغ، ولكن في خداع مكشوف بات يتخفى تحت شعارات شعبوية تزعم أنها لا ترفض "نقد الذات"، بل ترفض فقط: "جلد الذات!"[45]. أما نصف الكأس الممتلئ؛ في الواقع، هو نصف الكأس النقي في مقابل نصف الكأس العكر. وإن كانت الدراسة تسلط الضوء على نصف الكأس العكر فهذا لا يعني إنكار الجانب المشرق. بدءا من الهتافات المتقدمة التي صدحت بها حناجر الثوار الأوائل، إلى غصن زيتون غياث مطر وصحبه، إلى الذي غامر بروحه من أجل أن يلتقط الصور وينشرها إيمانا منه بقوة الإعلام وأهميته، إلى من خرج في مظاهرات سلمية بعد أن تعسكرت الثورة رغم أنف المشككين بجدوى التظاهرات السلمية بدعوى أن لا أحد يكترث لها. نصف الكأس النقي يشتمل أيضا على كل فكرة أو عبارة تحمل في طياتها ملامح الوعي، وكل عمل حقوقي وقانوني أو توثيقي هدف إلى فضح جرائم السلطة، وليس من حمل السلاح ودافع عن أهله متمثلا أخلاق الثورة خارج نصف الكأس النقي، بل هؤلاء هم الذين منحوا نصف الكأس النقي البقاء والصمود. نصف الكأس النقي صفحة ناصعة البياض في تاريخ الشعب السوري. ولكنها -مع كل أسف – ليست موضع إجماع حتى من قبل أولئك الذين يطالبون الناقد بأن ينظر إلى نصف الكأس الممتلئ.

إن الاقتصار على التغني بنصف الكأس النقي، أو الممتلئ كما يسمونه، والابتعاد نهائيا، أو الرفض القاطع للنقد البناء لن يعني في النهاية سوى المبالغة في مدح الذات التي اعتبرها طارق الحجي إحدى عيوب تفكيرنا المعاصر. فنظرة متأنية لما يذاع في الناس من مواد إعلامية مكتوبة أو مقروءة تظهر بوضوح أن وسائل إعلامنا المختلفة (المرئية والمسموعة

[45] - محمد المحمود، النقد الذاتي والحماس الجماهيري.
https://cutt.us/S6wCB

والمقروءة) أصبحت لا تخلو – بصفة يومية – من مدح الذات وإطراء إنجازاتنا ومزايانا، وعلى المستوى الفردي فإننا نمارس نفس الشيء بصفة شبه دائمة46.

أخيرا، بقيت ملاحظة هامة جدا وجب تسجيلها في هذا السياق، وهي أن النقد المحرم هو النقد البناء فقط، أما التجريح والتراشق وتبادل الاتهامات والتخوين وما شابه ذلك. أي النقد الهدام، فهو نقد يتمتع بشعبية واسعة، وقد سبق أن تمت الإشارة إلى أن البعض قد اتخذ من هذا النوع من النقد وسيلة للظهور والشهرة!

ماهي النتائج؟

يقول الكاتب الأمريكي جوزيف س. ناي: الآراء المنافية للعقل يتغذى بعضها من بعض وجنون الارتياب في الآخرين يمكن أن يكون معديا فتتصلب المواقف الأمريكية تجاه الأجانب، ونبدأ في الاعتقاد بأن باقي العالم يكرهنا.47

الكاتب أمريكي، وحديثه - كما هو واضح - يقصد به الأمريكيين، والكلام يحمل لهجة نقدية؛ فتلك آراء منافية للعقل. رغم ذلك، فالأمريكيين يستطيعون تقديم الكثير من الأدلة والبراهين بأن العالم يكرههم، فالولايات المتحدة دولة تتربع على قمة هرم النظام الدولي، وتتفوق على الآخرين بمسافات مريحة على كافة الأصعدة تقريبا، ومن الطبيعي أن يشكل لها ذلك الموقع وتلك المرتبة بالإضافة إلى أسباب أخرى بعض الكراهية. لكن المفارقة أن يكون هذا الشعور (العالم متآمر علينا، وبالتالي يكرهنا) متجذر لدى شريحة واسعة من الشارع السوري. بل ويصل إلى مستوى الاعتقاد.

وتعتبر الاعتقادات واحدة من أكثر الأبنية الذهنية التي نستخدمها ومركزية... ووفقا لفيرتزبيرغر، فإن منظومة اعتقادات الفرد تمثل جميع الفرضيات، والنظريات التي يكون الفرد مقتنعا بصدقها في لحظة معينة.48 إن الحديث عن نظم الاعتقاد لدى الشارع السوري يحتاج

---

46 - طارق الحجي، المرجع السابق، ص 29 و30.

47 - جوزيف س. ناي، القوة الناعمة وسيلة النجاح في السياسة الدولية، ترجمة: د. محمد توفيق البجيرمي، العبيكان للنشر، المملكة العربية السعودية، ط 1، 2007، ص 191.

48 - دايفد باتريك هوتون، علم النفس السياسي، ترجمة: ياسمين حداد، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2015، ط1، ص 174.

دراسة مفصلة أكثر عمقا وأكثر تفصيلا لمعرفة المصادر التي انبثقت عنها، والسياق التاريخي الذي نشأت فيه هذه النظم من الاعتقاد. إلى ما هنالك من تفاصيل بحثية. ولكن هنا، تكفي الإشارة إلى تفسيرات بعض السوريين لاستقبال ألمانيا لعدد كبير من اللاجئين السوريين؛ فمنهم من اعتبر هذا السلوك الألماني كان بدافع حاجة ألمانيا لليد العاملة، أو حاجتهم للطاقات الشبابية في مجتمعهم الهرم. والأطرف من ذلك حاجة ألمانيا إلى العقول السورية الفريدة من نوعها! وكذلك الأمر فيما يخص المساعدات الإنسانية؛ فالإغاثة تقدم لكي يتعلم السوريون التقاعس، وهي للإذلال أيضا، والتعليم مهمل بشكل متعمد لتجهيل الشعب السوري، وهكذا.

إذن، وبناء على ما سبق، يمكن اعتبار نظم الاعتقاد لدى شريحة واسعة من الشعب السوري ما يدعوه "هولستي" "نموذج الظن السيء المتأصل". والظن السيء إلى جانب الإيمان المطلق بنظرية المؤامرة، والفوضى في الساحة الإعلامية، وتقاعس النخبة عن القيام بدورها التوعوي وتفضيلها ممالأة الشارع، أو ربما عدم معرفتها (البعض يرى أن النخبة السياسية والنخبة المثقفة في غالبيتها تؤمن بما يؤمن به الشارع). هذه الأسباب وغيرها؛ أنتجت هذا الجانب من الخطاب في الشارع الثوري الذي يمكن إدراجه تحت مسمى "عطب الذات" وهو العنوان الذي أطلقه الدكتور برهان غليون على دراسته الأخيرة. وفي هذا السياق يمكن القول إن هذا النوع من الخطاب أنتج التالي:

استعداء الجميع: بينما تهدف الدعاية السياسية حشد التأييد الدولي والإقليمي والمحلي، كان هذا النوع من الخطاب الذي تعرض له البحث يستعدي كل هؤلاء، فالمتصفح لما ينشر عبر وسائل التواصل الاجتماعي قد لا يحتاج إلى جهد كبير لاكتشاف العداء للجميع. والملفت أن معظم السوريين على اختلاف مستوياتهم المعرفية يستطيعون أن يجادلوا حتى النهاية في نقد وتوبيخ الدول الغربية بالعموم، إضافة إلى دول الخليج العربي بالتحديد، ويقدمون من أجل ذلك الكثير من الأدلة والبراهين على فساد هؤلاء وتاريخهم القبيح. بينما يقتصر انتقادهم للقوى الحقيقية التي تقاتلهم على الأرض على بعض الشتائم، وهو دليل على أنهم

ينطلقون من مخزونهم الثقافي السابق الذي شكل النظام الحاكم أغلب مفرداته، والذي – من المفترض – هم يثورون عليه.

حرب نفسية على الذات: إذ لا يمكن أن يولد هذا النوع من الخطاب سوى مزيدا من اليأس والإحباط والقنوط لدى الشارع الثوري. ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل يتجاوزه إلى التصدي لبعض المحاولات الفردية التي تهدف إلى خلق نوع من الارباك في مناطق النظام وبث روح التفاؤل في الشارع الثوري، ويصبح الجميع محللا سياسيا عقلانيا يستنتج ويستنبط، ثم يكذّب. يروي أحد السوريين حادثة طريفة في هذا السياق، فبالتوازي مع الحملة العسكرية الشرسة على أرياف حلب وإدلب أطلق النظام وحلفاؤه حملة دعائية مصحوبة بالكثير من الشائعات كانت في مجملها حرب نفسية أشد شراسة، وسرت الشائعات بين الناس بشكل فظيع، وسادت حالة من الخوف والذعر لم يسبق لها مثيل. يقول هذا السوري: لعلمي بأن هذا الخوف والتشاؤم ليس إلا نتاجا لحرب نفسية، وأن الناس بحاجة إلى سماع رأي آخر، أو وجهة نظر أخرى غير تلك التي تقول إن كل شيء انتهى، وأن النظام خلال أيام معدودة سوف يسيطر على آخر شبر من المحرر، فكتبت منشورا عبر موقع فيسبوك اخترت أن أقول فيه: قريبا سيعلم الجميع أن ما يفعله النظام ليس إلا محاولة انتحار. ثم أردفت بمنشور آخر قلت فيه: إذا بقي هذا النظام حتى نهاية هذا العالم فذكروني بأنني غبي. بالفعل تلقف الكثيرون كلامي وكأنه هدية من السماء، لكن الطريف أنه بعد ذلك، هناك الكثيرون ممن ينتظرون نهاية العام ليذكرونني بأنني غبي، وهم صرحوا بذلك في أكثر من مناسبة، وبعضهم احتفظ بصورة المنشور لكي يقطع الطريق عليّ إن فكرت بحذفه!

إذن، وباختصار، هذا ما قدمه خطاب الشارع الثوري: استعداء الجميع كدعاية سياسية، وحرب على الذات من جهة الحرب النفسية. ويمكن أن يضاف إلى ما سبق: تعميق الانقسام بين مكونات الشعب السوري، وتدعيم التشرذم والانقسامات في الشارع الثوري.

مرة أخرى، هذه الورقة البحثية تركز على جانب محدد من الخطاب الثوري لتسلط الضوء على تأثر هذا الخطاب بالموروث الثقافي الذي يعود في معظم مفرداته إلى نظام الحكم الذي

ثار السوريون عليه. وهذا لا يعني بأي شكل من الأشكال أن خطاب الشارع الثوري بمجمله وقع في نفس الأخطاء، وإن كان الاعتقاد بأن ما تم تسليط الضوء عليه هو الجانب الأبرز.

نظم اعتقاد قابلة للتغيير

من أهم الظواهر في الثورات العظيمة التي غيرت وجه التاريخ البشري تلك الشرارة الفكرية الممهّدة للثورة، والمصاحبة لها في مسارها. فلا تكون ثورةٌ ذاتُ شأن من غير شرارة فكرية تشعلها في البداية، ثم تكون دليلَها في مسارها، وأفقَها إلى المستقبل ... من غير خميرة فكرية وأخلاقية ناضجة لا تنجح الثورة أصلا، بل تتحول إلى حرب عدمية، وإن هي نجحت في معركة الهدم، فإنها تفشل في معركة البناء49. وهذا ما دعا العديد من المراقبين والمفكرين إلى التخوف على مصير ومآلات ثورات الربيع العربي، ولعل ما حصل في بعض بلدان الربيع العربي كمصر وليبيا كان برهانا على أن تخوف هؤلاء كان في محله، ولم يكن تخوف مبني على هواجس لا أساس لها.

ليست الثورة السورية استثناء، لكن لها خصوصية، وهي امتدادها الزمني، أي أنها أتاحت فرصة كافية لهدم ثقافة وبناء أخرى، وأتاحت الفرصة لبناء قيم جديدة وأفكار جديدة، وبالتالي إنتاج طريقة جديدة في التفكير تختلف عما اعتاد عليه السوريون في مراحل ما قبل الثورة. صحيح أن الثورة السورية كغيرها من ثورات الربيع العربي لم تسبق بتلك الشرارة الفكرية الممهدة لها، لكن ما أطلقه الثوار الأوائل من شعارات ومطالب تصلح لأن تكون مادة لآلاف الندوات والحوارات والمقالات والدراسات والكتب، فالحرية والكرامة ليستا مجرد كلمتين، وليستا مجرد فكرتين، بل هما مفتاحين لنهر دافق من الأفكار.

لا شك أن التغيرات العميقة على صعيد المجتمع والثقافة تستغرق وقتا طويلا، خاصة أن العادات والتقاليد تموت بصعوبة بالغة كما يقول "غوستاف لوبون"50 لكن هذا وإن كان ضرورة يجب العمل عليها لأن الظروف أصبحت مواتية. خاصة وأن التيار المتململ من الثقافة

[49] - محمد المختار الشنقيطي، أوراق الربيع (1) الثورة والشرارة الفكرية.
https://cutt.us/A7fXE

[50] - غوستاف لوبون، سيكولوجيا الجماهير، ترجمة وتقديم: هاشم صالح، دار الساقي، بيروت، ط1، 1991، ص 101.

السائدة بما تحتويه من عادات وتقاليد أصبح عريضا؛ فليس هو المطلوب بالتحديد في هذه المرحلة لأن الصراع سيكون عنيفا يصعب للمثقف أو المفكر أو لتيار الحداثة أن ينتصر فيه. وإنما نمط التفكير الذي هو نتاج سياق معاصر لفشل الدولة الوطنية والتي تحولت إلى دولة مستبدة. فعندما نتبنى نمط التفكير السائد نقلل من فرص نجاحنا، بل ربما نجعلها معدومة. فلو عدنا إلى ما جاء في ثنايا هذه الورقة البحثية لوجدنا أن تلك الأخطاء تصل إلى مستوى الجرائم بحق الذات. وفي نفس السياق، لو فيما لو تم البحث عن الأسباب التي أوصلت الشارع الثوري إلى تلك النتائج لتبين أن أهمها الإيمان المطلق بنظرية المؤامرة مضافا إليها العامل الإسرائيلي المنبثق عنها والمتمم لها في نفس الوقت، وهو ما يمكن أن نسميه أحد أهم نظم الاعتقاد لدى السوريين بشكل عام.

يعتبر الأطباء السمنة داء مركبا يحتوي أو يسبب مجموعة كبيرة من الأمراض، وكذلك هي نظرية المؤامرة، فهي داء ينبثق عنه مجموعة كبيرة من آفات التفكير والأزمات السيكولوجية لدرجة جعلت البعض يعتقد أن إسقاط آلية التفكير هذه، أو خفض نسبة المؤمنين بها (باعتبار أن التخلص منها بشكل نهائي مستحيل) هو الحل الأمثل لمعظم المشاكل التي تعاني منها المجتمعات العربية، وفي مقدمتها المجتمع السوري باعتباره مجتمع يمر بمرحلة مخاضات التغيير المؤلمة.

أحد الناشطين السوريين الذين يؤمنون بهذه المقولة؛ أي: "إن تفكيك نظرية المؤامرة وإسقاط مقولاتها يعتبر المدخل الأهم لإحداث التغيير" يمارس نشاطا لا بأس به في هذا المجال خلال ثلاث سنوات على صفحته في موقع "فيسبوك". مؤخرا، عرض أسئلة الاستبيان الذي عرض في هذه الدراسة سابقا ذاتها على أصدقائه في الصفحة، فكانت الإجابات على الشكل التالي:

السؤال	الإجابة (نعم)	الإجابة (لا)	النسبة المئوية للذين أجابوا (نعم)

السؤال الأول	116	111	%51.1
السؤال الثاني	157	70	%69.16
السؤال الثالث	75	152	%33

وفي تفصيل آخر لهذا الاستبيان:

1- عدد الذين أجابوا (لا) عن الأسئلة الثلاثة (56) بنسبة (24.66%) من مجموع المتفاعلين.
2- عدد الذين أجابوا (نعم)عن الأسئلة الثلاثة (60) بنسبة (26.43%) من مجموع المتفاعلين.
3- عدد الذين أجابوا (لا-نعم-لا) (40) بنسبة (17.62%) من مجموع المتفاعلين. وبالنسبة لهؤلاء بالتحديد، ومن خلال ما ورد في تعليقاتهم، هم يعتقدون أن بأن إسرائيل تدعم بقاء النظام خوفا من البديل، وطالب معظم هؤلاء (وهم محقون) بتغيير السؤال الثاني ليصبح سؤالين. أي، سؤال يتضمن رغبة إسرائيل في الإبقاء على النظام الحالي بسبب مخاوفها من البديل ومصالحا، وسؤال آخر يربط هذه الرغبة بالعمالة. وعليه، يمكن اعتبار الفئتين الأولى والثالثة ممن يرفضون نظرية المؤامرة وفكرة هيمنة إسرائيل وملحقاتها على العالم والتي هي بحد ذاتها إحدى أهم الأفكار المنبثقة عن نظرية المؤامرة، وبهذا تصبح نسبة هؤلاء بعد جمع الفئتين (42.28%).
4- عدد الذين أجابوا (نعم-نعم-لا) (47) بنسبة (20.7%) من مجموع المتفاعلين.
5- عدد الذين أجابوا إجابات مختلفة عن النماذج السابقة (24) بنسبة (10.57%). ويمكن القول عن هذه الفئة والفئة السالقة عليها إنها الفئة التي بدأت بعض القناعات لديها تهتز.

مع الاعتراف بوجود بعض الملاحظات التي يمكن على بيئة الاستبيان الأخيرة، لكنها رغم ذلك، تبقى الفوارق المسجلة مؤشر جيد على أن التأثير موجود؛ حتى وإن افترضنا أن الاستبيان لو

أجري بطريقة أخرى قد تنخفض النسبة إلى النصف (نسبة الذين لا يؤمنون بنظرية المؤامرة وفكرة هيمنة إسرائيل وملحقاتها على العالم). أي، تصبح (21%). ومن أجل التأكيد على مدى التأثير عند وجود الرغبة وجهت نفس الأسئلة لخمسة عشر شخصا من أصدقاء الناشط الذي أجرى الاستبيان على صفحته مع إضافة سؤال: هل كانت إجاباتك ناتجة عن قناعات قديمة أم مستجدة؟ فكانت الأجوبة على الشكل التالي:

1- عدد الذين أجابوا (لا) عن الأسئلة الثلاثة (12). أي، (80%).
2- عدد الذين أجابوا (نعم) عن الأسئلة الثلاثة (صفر).
3- عدد الذين أجابوا (لا-نعم-لا) هو (2). أي، (13.33%).
4- عدد الإجابات الأخرى (1) وكانت (نعم-نعم-لا). أي، (6.66%).
5- عدد الذين قالوا إن الإجابات كانت نتيجة قناعات مستجدة (9). أي، (60%).

بالعودة إلى نتائج الاستبيان الأول، ومن خلال نفس العرض نجد أن:

1- عدد الذين أجابوا (نعم) عن الأسئلة الثلاثة (27). أي، (77.14%) من أصل 35 مستبان.
2- عدد الذين أجابوا (لا) عن الأسئلة الثلاثة (صفر).
3- عدد الذين أجابوا (لا-نعم-لا) (2). أي، (5.7%).
4- عدد الذين أجابوا (نعم-نعم-لا) (1). أي، (2.85%).
5- الإجابات الأخرى (5). أي، (14.28%).

أخيرا، لعل المقارنة بين الأرقام والنسب التي عرضت تبرهن بطريقة ما أن نظم الاعتقاد التي نشأت لدى نسبة كبيرة من الشعب السوري في مراحل متأخرة، وربما بالتحديد، بدأت هذه المعتقدات تترسخ إبان الحقبة الناصرية وما تلاها من حكم البعث في سوريا؛ أنها قابلة للتغيير والاختراق في حال وجدت الرغبة والصبر والمثابرة.

الخاتمة والنتائج والتوصيات:

لم تعد الحرب النفسية والدعاية السياسية مجرد وسيلة هامشية تساعد في الحرب، إنما تحولت لتصبح وسيلة وأداة عسكرية رئيسية لا يمكن الاستغناء عنها في أي حرب، فهي

بالإضافة إلى تقوية الجبهة الداخلية وإضعاف معنويات الخصم وزرع الشقاق في صفوفه تسعى إلى كسب الأصدقاء والمؤيدين وتعبئة الرأي العام العالمي بالكراهية ضد الخصم، وأحيانا، تحييد أصدقاء الخصم إن أمكن. وتدار الحرب النفسية والدعاية السياسية من خلال وسائل الإعلام بالدرجة الأولى، ومن خلال بعض الأنشطة الدبلوماسية والثقافية والقانونية من جهة أخرى؛ لهذا، ومن خلال ما تم استعراضه في هذه الورقة البحثية؛ تعتبر الجهات التي تبوأت المواقع المتقدمة في صفوف الثورة ارتكبت خطأ فادحا عندما لم تول الإعلام وإعادة التثقيف، وتوعية الجماهير العناية الكافية.

عندما تتبنى الأغلبية نمط التفكير السائد؛ فلا غرابة في أن يحصل كل ما حصل. لم يكن من الحكمة ترك الحبل على الغارب، فالإنسان العادي لا يستطيع بمفرده أن يغير قناعاته أو طريقة تفكيره، أو حتى مفرداته التي تعلمها سابقا، كما أنه لن يستطيع بمفرده التعامل مع المعلومات المضللة التي تصله عن طريق الخصم، خاصة وأن تلك المعلومات والأفكار سواء منها السابقة أم اللاحقة؛ تفتقر إلى المصداقية، وهي كانت ومازالت تصاغ خدمة لأجندات النظام السوري وخطه السياسي، وإذا ما أضفنا إلى ذلك الأفكار والمعلومات المنبثقة عن نظرية المؤامرة يكون المواطن غارقا في بحر من المعلومات الوهمية، أو المكذوبة. ويعتبر الإيمان المطلق بنظرية المؤامرة أحد أهم العوامل التي تجعل الإنسان قابلا لتقبل المعلومات المكذوبة والمضللة.

عندما ينطلق الإنسان أو الباحث من مقدمات صحيحة ليس بالضرورة أن يصل إلى نتائج صحيحة، وإنما الأمر يحتمل الوجهين. أما إذا انطلق من مقدمات خاطئة فبالتأكيد أن النتائج سوف تكون خاطئة؛ باستثناء صدف نادرة الحدوث. فعلى سبيل المثال من مقدمة أن العالم متآمر علينا وأن الثورة يتيمة؛ لم يكتف الكثيرون بعدم المشاركة بالمظاهرات والاحتجاجات السلمية التي كان بعض الناشطين يدعون إليها بعد أن تعسكرت الثورة، بل حرضوا الآخرين على عدم المشاركة بحجة أن هذه الأعمال لا طائل منها ما دام العالم قد اتخذ موقفه مسبقا.

ولا تقتصر خطورة الإيمان بنظرية المؤامرة وبعض المقولات المنبثقة عنها على أنها توصل المؤمنين بها إلى استنتاجات خاطئة، أو على جعل الشخص يتقبل الهزيمة ويستسلم لها،

ولكن خطورتها أنها تعمل على تسطيح وعي المجتمع، وبمرور الوقت تصبح أي محاولة للإصلاح تصنف على أنها تمرد على السائد، ويتكاتف الجميع من أجل محاربتها. ولعل في هذا الكلام اعتراف بصعوبة إنجاز الثورة الثقافية والفكرية، خاصة إذا علمنا أن الشعب الذي يقوم بالثورة تهيمن عليه ثقافة سياسية محافظة معادية للحريات وقيم الثورات نفسها.

رغم ذلك، فالتصدي لمهمة التغيير تستحق المجازفة والتضحية، فالثمن الذي دفعته الثورات العربية ولا تزال تدفعه ليس إلا نتيجة غياب النهضة الفكرية والثقافية.

إن أول ما ينبغي على النخب السياسية والثقافية فعله، إذا كانت فعلاً صادقة في التغيير، ولا تريد فقط إعادة إنتاج الأنظمة القديمة، هو القيام بثورات ثقافية عميقة تسقط أنماط التفكير والعقليات الاجتماعية المترسخة، فصفة الثورة تطلق على الانتفاضات الكبرى التي تحدث نقلة نوعية عميقة في بنية المجتمع على كافة المستويات، أما إذا اقتصر الفعل على الإطاحة بالحكام واستبدالهم بآخرين فالفعل الثوري هنا ليس أكثر من إعادة إنتاج النظام السياسي ذاته بوجوه جديدة. إن ثورة بهذا المعنى، ثورة تطال القشور فقط لا تستحق هذا الحجم من الآلام والدماء والأرواح التي أزهقت.

أخير، يمكن الخروج بالاستنتاج التالي: "إن الخطاب الإعلامي للثورة اشتق من نفس المحتوي الثقافي السابق على الثورة، والذي لعب النظام دورا محوريا في تشكيله، خاصة وأن النخب السياسية والثقافية والفكرية الثورية لم تول اهتماما بهذه الناحية. أي، ضرورة تخليص السوريين من ثقافتهم القديمة، واستبدالها بثقافة وقيم تتناسب وأحلام هذا الشعب أو تطلعاته. كما أنه لم يعط للجانب الإعلامي والدعائي ما يستحقه من اهتمام".

قائمة المراجع:

- مالك بن نبي، مشكلات الحضارة مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر بدمشق، 2000م، ط4.
- محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009، ط10.
- أندرو هيوود، النظرية السياسية، ترجمة: لبنى الريدى، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2013.
- حامد ربيع، فلسفة الدعاية الإسرائيلية، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، بيروت، 1970.
- رفيق سكري، الرأي العام والإعلام والدعاية، مكتبة مؤمن قريش، لبنان، 1991.
- حامد ربيع، الحرب النفسية في المنطقة العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1974، ط1.
- جيهان رشتي، الإعلام دعاية، واستعمال الراديو في الحرب النفسية، دار التوفيق النموذجية للطباعة والجمع الآلي، القاهرة، 1985.
- حميدة سميسم، الحرب النفسية، الدار الثقافية للنشر.
- عبد اليد شكري، الاتصال الإعلامي والتنمية، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، 1995.
- دومينيك وولتون، الإعلام ليس تواصلا، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2012.
- ريموند هينبوش، تشكيل الدولة الشمولية في سوريا البعث، ترجمة: حازم نهار، 2014، ط1.
- محمد المختار الشنقيطي، الأزمة الدستورية في الحضارة الإسلامية، من الفتنة الكبرى إلى الربيع العربي، منتدى العلاقات العربية والدولية، الدوحة، قطر، 2018، ط1.
- طارق الحجي، نقد العقل العربي-من عيوب تفكيرنا المعاصر، دار المعارف، القاهرة، 1998، ط2.
- هشام جعيط، أزمة الثقافة الإسلامية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2000، ط1.

- جوزيف س. ناي، القوة الناعمة وسيلة النجاح في السياسة الدولية، ترجمة: د. محمد توفيق البجيرمي، العبيكان للنشر، المملكة العربية السعودية، ط ١، 2007.
- دايفد باتريك هوتون، علم النفس السياسي، ترجمة: ياسمين حداد، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2015، ط١.
- غوستاف لوبون، سيكولوجيا الجماهير، ترجمة وتقديم: هاشم صالح، دار الساقي، بيروت، ط١، 1991.

الروابط الإلكترونية:

- عبد القادر نعناع، دور الوعي السياسي في تطور المجتمعات.

https://www.facebook.com/106990414078834/posts/331918621586011/

- عمار خصاونة، الإعلام في الثورة السورية .. العلاقة والضحايا.

https://geiroon.net/archives/82115

- عبد الناصر الحسين، جيش النظام الإلكتروني صاغ خطاب الثورة.

https://syrian20.blogspot.com/2020/06/blog-post_23.html

- أوروبا تسعى لثني إسرائيل عن عمليات "الضم" حتى لا تضطر للرد

https://bit.ly/3fS2RXh

- الاتحاد الأوروبي يحذّر إسرائيل من ضم أجزاء في الضفة .. الشرق الأوسط

https://bit.ly/2Bzi6VT

- إسرائيل "تتخوف" من عقوبات أوروبية حال ضم المستوطنات

https://bit.ly/3fJrm8I

- ألمانيا: ضم أجزاء من الضفة يجعل حل الدولتين غير قابل للتطبيق

https://bit.ly/2Bvugzm

- ألف نائب أوروبي يطالبون بوقف مخطط ضم أجزاء من الضفة

https://bit.ly/2B5fH5N

- وزير الخارجية البريطاني دومنيك راب، قال إن خطوات من هذا القبيل ستلحق الضرر بالجهود الرامية لاستئناف مفاوضات السلام، وتتناقض مع القانون الدولي

https://cutt.us/RmNBy

- الصين "تعارض" تصريحات نتنياهو بشأن ضم مناطق بالضفة الغربية

https://cutt.us/tg2Ih

- روسيا تحذر إسرائيل من تبعات ضم الأراضي الفلسطينية

https://cutt.us/fdI8g

- قراءة في التصويت الأميركي: انقسام على كافة المستويات

https://cutt.us/pGzQL

- قرار اليونسكو: الأقصى تراث إسلامي خالص

https://c. utt us/kAVf

- ندى محمد الغاد.

https://www.facebook.com/nedaalghad

- روبن ميلز، نظرية خط أنابيب الغاز في سوريا هي دراما ذات ميزانية منخفضة.

https://cutt.us/o7KEl

- علاء الدين الخطيب، سوق الغاز الطبيعي وعلاقته بالمسألة السورية.

https://www.infosalam.com/syria/syria-studies/syria-gas-pipeline .

- إدارة معلومات الطاقة الأمريكية.

http://www.eia.gov/todayinenergy/detail.cfm?id=8490

- حسن الغيم، شيطنة الثورة .. غرسها علي دوبا ورعتها جاهليتنا.

http://nedaa-sy.com/literatures/65

- محمد المحمود، النقد الذاتي والحماس الجماهيري.

https://cutt.us/S6wCB

- محمد المختار الشنقيطي، أوراق الربيع (٦) الثورة والشرارة الفكرية.

https://cutt.us/A7fXE

NMA
for
Contemporary
Research

مركز نما للأبحاث المعاصرة

www.nmaresearch.com

info@nmaresearch.com

nmafoecontemporaryresearch